الفصل الخامس

الدولة الوسطى

الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة (٢١٣٤ – ١٧٧٨ ق.م.)

- الأسرة الحادية عشرة (٢١٣٤- ١٩٩١ ق.م.)
- الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ – ١٧٧٨ ق.م.)

امنمحات الثالث

الـــدولـــة الوســـطى

الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة

(٢١٣٤ - ١٩٩١ ، ١٩٩١ - ١٧٧٨ قبل الميلاد)

****

الأسرة الحادية عشرة

نشأة حكام طيبة وتأسيس الأسرة :

نشأ فى طيبة منذ أيام الأسرة السادسة بيت حاكم ، كما حدث فى أكثر الأقاليم عندما ضعفت الحكومة المركزية فى منف ، وقطع بعض أولئك الحكام مقابرهم فى صخور تلال جبانة طيبة فى البر الغربى من النيل حيث يوجد عدد قليل منها بين مقابر العصور الأخرى .

ولسنا نعرف كثيراً عن أولئك الحكام أثناء الفترة التى تلت الأسرة السادسة ، ولكن لا يخامرنا شك فى وجود بيت و حد قوى أو أكثر من بيت فى هذه المنطقة الغنية ، وأن هذا البيت كان يعيش تارة فى سلام ، ويتنازع على السيادة تارة أخرى مع جيرانه فى أرمنت فى الجنوب وقفط فى الشمال ، حتى انتهت أيام الأسرات السابعة والثامنة فى منف . ثم نشأت بعد ذلك الأسرة التاسعة فى إهناسيا . ولكن عندما تغيرت الأمور وانتقل الحكم إلى ما نسميه الأسرة العاشرة فى إهناسيا أحس بيت طيبة بأنه لا يقل فى أحقيته للملك عن ملوك الشمال فأعلنوا عدم طاعتهم لإهناسيا ، وكونوا منهم ومن جيرانهم الأقربين إتحاداً فى الجنوب ، أى أن الأسرة الحادية عشرة فى الجنوب تبدأ فى الحقيقة منذ بدء الأسرة العاشرة فى الشمال ، لكن هؤلاء الجنوبيين احتاجوا إلى وقت طويل يزيد عن ثمانين عاما حتى أصبحوا يحكمون البلاد كلها دون منازع ، وأصبح الملك منتوحوتب الثانى ملك مصر كلها ووحد البلاد لتبدأ فترة جديدة فى تاريخها .

ومؤسس هـــذا البيـــت الذى سمى بإسم الأسرة الحادية عشرة فيما بعد ، يسمى إنيوتف ، (يكتبه أحيانا بعض الأثريين أنتف) ، ولا نعرف عنه أكثر من أنه كان

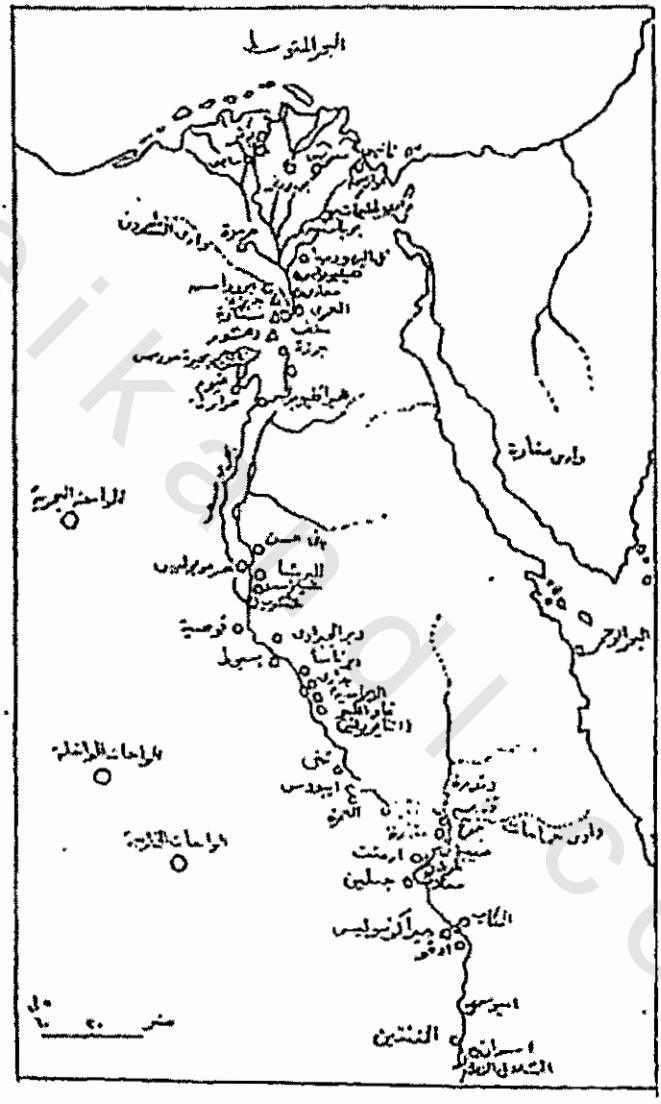

مصر فى عصر الدولة القديمة والدولة الوسطى

مؤسس هذا البيت وأن أمه تسمى « إكو » وأن أهل طيبة فيما تلا ذلك من الأيام كانوا ينظرون إليه نظرة تقديس خاصة ، وكانوا يلتمسون بركته [1] .

وورد اسم هذا الشخص أيضاً فى لوحة الأجداد التى أقامها تحوتمس الثالث فى الكرنك كأول حاكم للأسرة الحادية عشرة ، ولكنهم لم يكتبوا إسمه فى خانة ملكية بل إكتفوا بأنهم كتبوا ألقابه « الحاكم والأمير الوراثى إنيوتف المبجل » [2] . لم يدع إنيوتف الملك منذ البداية بل ظل على إستقلاله الذاتى بإقليمه ولم يقطع صلته بملوك الشمال إذ ذكر على لوحته الشهيرة التى عثر عليها ماريت فى القرن الماضى وتوجد الآن فى متحف القاهرة أنه الحاكم ، الأمير الوراثى ، والسيد العظيم لإقليم طيبة الذى حاز على رضاء الملك كحارس لباب الجنوب ، العماد العظيم لمن يحيى الأرضين (يشير طبعاً إلى الملك) ، الكاهن الأكبر .. إنيوتف .

وفى وقت من الأوقات فى أواخر أيام حكمه ، كتب إنيوتف هذا – وكان يسمى أيضاً « سهر تاوى » أو مهدىء الأرضين – إسمه فى خانة ملكية وأصبح معروفاً لنا بإسم إنيوتف الأول ، وأحاط نفسه برجال البلاط ، ودفن فى قبر كبير أمامه صف من الأعمدة المقطوعة فى الصخر ، وكان هناك هرم من الطوب فوق قبره فى جهة الطارف ، وهى المنطقة الشمالية من جبانة طيبة .

إنيوتف الثانى (٢١٣١ – ٢٠٨٢) :

وتلاه إنيوتف الثانى المسمى « واح عنخ » وقد حكم نحو خمين عاما (من حوالى ٢١٣٠ – ٢٠٨١) على الأقاليم الخمسة الجنوبية فى الصعيد ، وبدأ فى عهده التوسع نحو الشمالى ، وبدأ الطيبيون فى مهاجمة الإقليم السادس ، وهو إقليم ثينى حيث توجد جبانة أبيدوس ، ولكن الإهناسيين ظلوا على قوتهم خصوصا وأن أمراء أسيوط الأقوياء كانوا حلفاء لهم .

كان إنيوتف الثانى معاصراً لإختوى (أو « خيتى ») أمير أسيوط ، وفى مقبرة هذا الأخير نقرأ بعض إشارات عن جمع الجنود وإعداد الرماة والتفاخر بالأسطول

ولكنه لا يذكر وقائع حربية صريحة بينه وبين الطيبيين ، ويفتخر أختوى أمير أسيوط في مقبرته بأن الملك (أى ملك إهناسيا) عينه حاكما وهو ما زال فى طفولته وأنه تعلم السباحة مع أبناء الملك .

ولكن الأمور لم تكن على هذه الصورة من الهدوء والإطمئنان الذى نراه فى نقوش أختوى فى أسيوط ، فإنا نعلم أن غيره من الأمراء فى الشمال مثل أمراء بنى حسن وأمراء البرشا أخذوا بدورهم يعلنون إستقلالهم ويؤرخون الحوادث بتاريخ حكمهم ، وبعبارة أخرى أخذ زمام الأمور يفلت من أيدى ملوك إهناسيا .

ومن نقوش مقبرة ، تف إب ، إبن أختوى الذى تلاه فى حكم أسيوط نقرأ شيئاً عن حروبه مع الطيبيين فى ثنيى ، إذ يتحدث عن معاركه مع أعداء الملك ويقول عن زعيم الطيبيين إنه وقع فى الماء وأن سفنه تفرقت وإستطاع أن يملى عليه ما يريد . ولكن رغم هذا التفاخر بنفسه وبقوة جنوده فإن الحقيقة كانت إنتصار طيبة وضم إقليم ثنيى إليها فأصبح تحت حكم إنيوتف الثانى ستة أقاليم من الصعيد ، وأصبح الحد الشمالى لملك الطيبيين عند مدينة كوم اشقاو (افروديتوبوليس) كما نعرف ذلك من عدة مصادر أخرى وهى لوحات بعض موظفى إنيوتيف التى عثر عليها فى طيبة .

كان إنيوتف الثانى من الحكام الأقوياء ، وقد أحسن إدارة الأقاليم الستة وبدأ فى تشييد بعض المعابد وبخاصة للإله ، مونتو ، ورمم الهياكل والمعابد التى كانت للآلهة الأخرى فى تلك الأقاليم ، وبنى لنفسه قبرا كبيرا كان يعلوه هرم من الطوب ، وأمام هذا الهرم أقام لوحة .

ولقبر هذا الملك ولوحته قصة طريفة ، جاء ذكرها فى برديه أيوب (Abbot Papyrus) التى نعرف منها تفاصيل سرقات مقابر الملوك فى الأسرة العشرين ، إذ زارت لجنة التحقيق هذا المكان وأشارت إلى تلك اللوحة بأنها كانت فى مكانها أمام الهرم وأن ، رسم الملك على هذه اللوحة وكلبه المسمى (بحك) بين قدميه ، ويزيد التقرير بأنهم فحصوا القبر فى ذلك اليوم ووجدوه سليما لم يسرق . وعثر ماريت فى عام ١٨٦٠ على هذه اللوحة وتركها في مكانها ثم عثر عليها رجال الآثار مرة أخرى فى عام ١٨٨٢ ، ورغم تحطيمها فإن أجزاءها جمعت إلى بعضها وهى الآن فى المتحف المصرى ، ونرى عليها ، إنيوتف ، واقفاً ومعه خمسة من كلابه سماها بأسماء ليبية وكتب إلى جانب ثلاثة منها معانيها باللغة المصرية . ومن المعتقد أن هذه اللوحة لم تكن قائمة وحدها عند قاعدة الهرم بل كانت هناك لوحات صغيرة مختلفة بأسماء الموظفين المقربين إليه عثر على بعض منها فى المكان نفسه أثناء حفائر ماريت (Mariette) ثم حفائر ماسبرو (Maspero) ودارسى (Daressy) بعد

ذلك ، وتسرب أكثرها إلى المتاحف الأوروبية والأمريكية .

إنيوتف الثالث (٢٠٨٢ – ٢٠٧٩) :

ومات بعد أن حكم خمسين سنة فتبعه إبنه ، نب تپى نفر ، على العرش ، ويسمى أيضاً إنيوتف ، وكان متقدما فى العمر فلم يبق فى الحكم إلا سنوات قليلة ، ولم يبق من عهده إلا القليل وأهمه لوحة أحد موظفيه المسمى ، مججى ، (١) .

منتوحوتب الأول (٢٠٧٩ – ٢٠٦١) :

وتلاه على العرش ابنه ، منتوحوتب ، المسمى ، سعنخ إب تاوى ، ، وفى عهده أراد ملوك إهناسيا أن يسترجعوا ما فقدوه فحدثت بينهم وبين طيبة تلك الحرب التى عاد فيها إقليم ثينى (أبيدوس) إلى الشماليين وكان ذلك فى عهد الملك أختوى الرابع من ملوك إهناسيا كما أشرنا . وربما كان إبنه الأمير ، هرو نفر ، قد مات وهو يحارب دفاعا عن أبيدوس .

ولسنا نعرف عن هذا الملك شيئاً آخر ذا أهمية اللهم إلا أنه وضع تصميما لقبر يزيد فى حجمه عن قبور كل من سبقه من الملوك ولكنه مات بعد أن حكم ثمانية عشر عاما وترك قبره دون أن يتمه ، وخلفه على العرش إبنه منتوحوتب الثانى .

منتوحوتب الثانى (٢٠٦١ – ٢٠١٠) :

كان منتوحوتب الثانى أقوى وأهم ملوك هذا البيت . لم يسترجع إقليم أبيدوس فحسب ، بل اندفع نحو الشمال حتى سقطت إهناسيا نفسها فى العام التاسع من حكمه وكان أول ملك من ملوك طيبة يصبح حقيقة ملكاً على الوجه القبلى والوجه البحرى ، وكان ذلك حوالى عام ٢٠٥٢ ق.م. ولهذا يرى بعض المؤرخين إعتبار من سبقه من ملوك هذه الأسرة والتسعة أعوام الأولى من حكمه وقتاً معاصراً للأسرة العاشرة وأن الأسرة الحادية عشرة تبدأ من هذا التاريخ فقط ، ولكن الإنصاف فى البحث يحتم علينا إعتبار أيام الأسرة الحادية عشرة منذ عهد إنيوتف الأكبر أى قبل ذلك بإثنين وثمانين عاماً ، إذا لم ينس الطيبيون كما ذكرنا ذكرى مؤسس هذا البيت فالهموه وذكروه دائماً على آثارهم وفى وثائقهم وكانوا يقدمون له القرابين .

بذل منتوحوتب كثيراً من الجهد لإخضاع كل معارضة قامت فى طريقه . ولا

شك أنه حارب فى الدلتا وحارب البدو فى الشرق والغرب كما أخضع المنطقة جنوبى إلفنتين ، ولكنه ترك الأمراء القدماء يحكمون أقاليمهم وإكتفى منهم بالطاعة والجزية وحسن الولاء .

كان إسمه عند توليه العرش : حورس نترى حزت ، ولكنه بعد العام التاسع عندما تغيرت الأوضاع وأصبح ملك مصر كلها دون منازع ، غير لقبه إلى « سما تاوى » أى موحد الأرضين وأصبح إسمه الآخر « نب حپت رع » وهذا هو الإسم الذى أصبح معروفاً به فيما بعد على جميع ما خلفه من آثار ، وهو الإسم الذى نراه فى معبد الرمسيوم بين إسمى « منا » مؤسس الأسرة الأولى و « أحمس » مؤسس الأسرة الثامنة عشرة ، أى أن هؤلاء الملوك الثلاثة كانوا فى نظر المصريين أنفسهم ، فى الأسرة التاسعة عشرة ، هم مؤسسو الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة .

بدأت طيبة عهداً جديداً فى تاريخها ، وأخذت ضرائب البلاد كلها تتدفق على خزائنها ولم يدخر منتوحوتب وسعاً فى تجميل عاصمته وإنشاء المعابد المختلفة فيها وفى غيرها من البلاد . وقد رأينا منذ عهد أسلافه أن الفن الذى كان قد تأخر وإنحط ، أخذ يعود إليه شيئاً فشيئاً بعض روائه القديم ، ولكنه ظل متأثراً بالفن المحلى فى بعض نواحيه . وقبل أن نتحدث عن منتوحوتب وطيبة فى عهدها الجديد يحسن بنا أن نقف قليلا لذكر أهم ما نعرفه عن تلك الفترة . فقد أخذ ذلك الملك يوجه عنايته لتشييد المبانى ولا عجب إذاكان الفنانون قد أخذوا يستردون بعض ما كان لهم من مهارة فى الدولة القديمة .

وأخذت تعود للفن بعض مظاهر رقيه وها هو المثال « إرتى سن » نراه مرسوما مع زوجته وأبنائه على إحدى اللوحات ، ويفتخر بأنه كان يعرف كيف يرسم حركات التقدم والتأخر ، وكذلك حركات رسم الرجل وجسد المرأة ، وكيفية رفع الذراع عند صيد فرس البحر ، وحركات الشخص الجارى وأنه لم يكن هناك من ينجح فى عمل ذلك غيره هو وإبنه الأكبر (١) .

وكان بين أعمال منتوحوتب الثانى التى بدأها فى وقت مبكر من حياته إختيارمكان مدفنه ومعبده ، وقد عثرت بعثة متحف المتربوليتان على جثث ما يقرب من ستين جنديا ربما كانوا قد سقطوا عند مهاجمة هراقليوبوليس (إهناسيا) ونقلوا جثـــهم إلى طيبة ليدفنوهم على مقربة من ملكهم الذى حاربوا معه .

كان انتصار منتوحوتب الثانى على أعدائه وتوحيد مصر كلها تحت سلطانه بداية عصر جديد . وأخذت مصر تنهض من كبوتها شيئاً فشيئاً وأخذ منتوحوتب يرسل الحملات إلى مناطق المناجم للعمل فيها ، كما أنه لم يهمل فى نشر الطمأنينة على الحدود فبعث بحملة وراء أخرى لإخضاع كل من حدثته نفسه بالبقاء بعيداً عن حظيرة وحدة البلاد .

واختار منتوحوتب الثانى المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم الدير البحرى ليشيد فيها معبده الجنازى ويحفر فيها قبره . ومنذ البداية أراد مهندسوه أن يجعلوا من مجموعته الجنازية ما يناسب عظمته ، ولو إنهم استوحوا كثيراً من تفاصيله المعمارية من مقابر أسلافه فى منطقة الطارف التى تبعد كيلو مترين إلى الشمال من الدير البحرى.

وفى العام التاسع والثلاثين من حكمه أى بعد ثلاثين سنة من إستيلائه على إهناسيا إحتفل بعيده الثلاثينى ، الحب (عيد) سد ، وغير لهذه المناسبة فى بناء معبده الجنازى ، كما أقام بعض التماثيل التى تمثله فى صورة الإله أوزيريس فى ذلك المعبد. وفى العام نفسه نرى منتوحوتب يقوم برحلة نيلية إلى الجنوب بصحبة عدد كبير من أفراد عائلته ورجال حاشيته ، ووصلوا فى تلك الرحلة إلى ما بعد جبل السلسلة التى كانوا يعتبرونها آخر حدود مصر الجنوبية وبداية إقليم النوبة ، وبقى فى ذلك المكان فترة من الوقت عند مكان يقال له شط الرجال وكان التفسير السائد لهذه الرحلة والنقوش والرسوم التى نقشت على الصخر أن منتوحوتب أتى لينتظر إبنه الأكبر الذى كان يسمى إنيوتف ، ومن المحتمل أنه كان على رأس حملة إلى بلاد النوبة .

وقيل أيضاً من الجائز أن يكون منتوحوتب قد أعلن إبنه ولياً للعهد وربما أيضاً شريكاً فى الملك بهذه المناسبة ، لأننا نرى إسمه مكتوباً فى النقش الكبير الذى نرى فيه اسم منتوحوتب وأسماء عائلته وبخاصة أمه وزوجاته ورجال بلاطه ، نقرأ إنيوتف ، الأب الإلهى ، محبوب الإله ، إبن الشمس إنيوتف الذى يعيش إلى الأبد ، وقد كتبوا إسمه فى خانة ملكية . ولكن إنيوتف هذا لم يعش طويلاً بعد ذلك ، ومات ودفن على مقربة من القبر الذى أعده له أبوه داخل حرم معبده الكبير فى طيبة . ولكن هذا التفسير وجد بعض المعارضة ويظن بعض المشتغلين بالتاريخ أن إنيوتف هذا لم يكن إبناً للملك بل كان أباه وأن منتوحوتب لثانى لم يكن إبناً لمنتوحوتب الأول بل حكم بينهما لفترة قصيرة جداً إنيوتف الذى خلد إبنه ذكراه فى شط الرجال .

وفى جهات مختلفة من مصر وبخاصة فى الصعيد ، فى الجبلين وفى الطود وفى دير البلاص وفى دندرة وفى أبيدوس وغيرها ، أقام هياكل جديدة وأصلح ما تهدم من مبانيها ، ولكن خير مبانيه جميعاً هو ما شيده فى طيبة ليكون مقراً أبدياً له بعد وفاته .

مقبرة منتوحوتب ومعبده الجنازى :

يرى زائر منطقة الدير البحرى أطلال معبد الأسرة الحادية عشرة إلى الجنوب من معبد حتشبسوت ، والواقع أن مهندسى الأسرة الثامنة عشرة كانوا متأثرين بمن سبقهم فى أوائل الدولة الوسطى ، ليس فى اختيار المكان فحسب ، بل وتأثروا أيضاً بعمارته وتشييده على نظام المدرجات . وإذا كانت أطلال معبد الدولة الحديثة أصبحت أكثر أهمية الآن لكثرة ما بقى من مبانيه ونقوشه الهامة ، فإن الذى يعنى بفحص كل من المعبدين سيدرك بلا شك أن معبد منتوحوتب عندما كان كاملاً كان أفخم وأجمل من معبد حتشبسوت .

شيد مهندسو منتوحوتب معبده على مرتفع أقاموا أمامه صفوفاً من الأعمدة ، وفوق ذلك المرتفع قام هرم نحيط به الأعمدة أيضاً ، وكان يوصل بين الردهة السفلى لذلك المعبد وبين معبد آخر على حافة الوادى طريق طويل بين جدران ، وعلى جانبى الطريق الموصل أقاموا تماثيلاً للملك منتوحوتب تمثله فى صورة المعبود أوزيريس .

فإذا ما وصل زائر المعبد الذى كان يأتى من الوادى ، ويصعد إلى آخر الطريق ويمر فى الباب الموصل إلى المعبد ، يرى نفسه يسير بين صفين من أشجار الجميزة وخلفهما من اليمين واليسار حديقتان غرز فى كل منهما عدد كبير من أشجار الأثل . ويسير بعد ذلك فى طريق صاعدا حتى يصل إلى الرصيف الذى أقيم عليه المعبد . فإذا أراد هذا الزائر أن يدور حول الهرم فإنه يرى هناك ١٤٠ عموداً على جوانبه وهى مثمنة الجوانب ، ثم يجد نفسه بعد ذلك فى ردهة مفتوحة للسماء تحيط بها الأعمدة فقط على جوانبها على هيئة بواكى . وفى وسط هذه الردهة فتحة تنزل إلى الصخر يليها دهليز طويل يقل قليلاً عن ١٥ متراً ، وكسيت جوانبه بالحجر الرملى الأرجوانى، وفى نهاية حجرة الدفن المشيدة من الجرانيت ، وفى وسطها تابوت من المرمر .

ولنترك الآن حجرة الدفن والتابوت ونعود أدراجنا لنستأنف وصف باقى المعبد. فعندما يصل الزائر إلى نهاية الردهة يجد فى آخرها من ناحية الجبل بهواً يحمل سقفه ثمانين عموداً مثمنة الجوانب وفى الجهة الغربية من ذلك البهو مذبح أمام هيكل

مقطوع فى الصخر كان فيه تمثال للملك ، وبعبارة أوضح لقد جمع هذا البناء بين قبر الملك ومعبده كما إحتفظ أيضاً بفكرة الهرم إذ أقيم هرم فى وسط المعبد ولكنه كان هرماً أصماً ولم يدفن فيه أحداً .

وكشفت الحفائر فى هذا المعبد عن حقائق مهمة تتعلق بتشييده ، إذ ثبت أن مشروع تشييده قد تغير عدة مرات بعضها أثناء العمل والبعض الآخر بعد الإنتهاء منه، وذلك بهدم بعض الأجزاء وإعادة بنائها على نظام آخر .

وقبل أن يشيدوا شيئاً ، مهد المهندسون أرضية المكان وحفروا إثنتى عشرة حفرة فى الأرض فى محور المعبد ، ووضعوا فى كل منها أرغفة خبز مخروطية الشكل ، ثم حفروا عند كل ركن من أركان ذلك الرصيف المتسع حفرة مربعة ووضعوا فيها القرابين المختلفة ووضعوا فوق تلك القرابين أربعة قوالب من الطين ، وضعوا فى ثلاثة منها قوالب صغيرة صنعت إحداها من الخشب والثانية من الحجر والثالثة من المعدن وهى المواد التى استخدمت فى تشييد المعبد إلى جانب الطوب اللبن، وعليها اسم الملك وألقابه . أما القرابين فقد وضعوها فى أوانٍ فخارية ، كما حوت هذه الحفر قطعا من اللحم ورأس ثور وفخذه وبعض قطع من ضلوعه وكثيراً من أرغفة العيش ، من مخروطية ومستديرة ، وبعض حبوب الشعير والفاكهة وبخاصة التين والعنب ، كما وضعوا بينها أيضاً أوان صغيرة رمزية فيها جعة ونبيذ سدوا فتحاتها بالطين . وتسمى محتويات أمثال هذه الحفر ودائع الأساس ، وكثيراً ما نجد أمثالها فى أركان المعابد وتحت بعض عتباتها أو أعمدتها ، ويجد فيها رجال الآثار أحياناً كثيراً من الجعارين والحلى وغيرها وعليها اسم الملك الذى شيد المعبد .

وعثر أثناء الحفائر على عدد كبير جداً من أجزاء الجدران المنقوشة وعليها رسوم ملونة تبين بوضوح تقدم الفن المصرى فى ذلك العهد كما عثروا أيضاً على كثير من أجزاء التماثيل وبعض التماثيل الكاملة ، وعلى قطع كثيرة من الأعمدة ، كما عثروا على قطعة من الحجر عليها رسم قديم خطه المهندس القديم بفرشاة يمثل التصميم الأصلى لجزء من المعبد وعليه رسم واضح للرصيف وأماكن الأشجار .

لم يكن هذا البناء وقفا على منتوحوتب الثانى وحده ، بل ضم أيضاً عددا كبيرا من مقابر أهله وبخاصة زوجاته ومحظياته ، ويبلغ عددهم أكثر من ثلاثين ، وأهمها مقابر أمه رزوجاته الملكات : نفرو ، و ، تم ، وكذلك : عشاييت ، و ، كمسيت ، و ، كاويت ، وغيرهن اللاتى عثر على توابيتهن الجميلة هناك ، وبعضها فى متحف القاهرة الآن والبعض الآخر فى نيويورك ، وكلها من الحجر الجيرى وعليها نقوش

جميلة . كان هؤلاء الزوجات مدفونات تحت أرضية المعبد وكان لكل منهن عند آخر البهو هيكل صغير لتمثالها وعليه اسمها وبعض ألقابها ، كما عثر فى مقابرهن على بعض الحلى التى كن يتزين بها أثناء الحياة . ولم تقتصر المقابر على زوجات الملك فقط بل كان هناك أيضا بعض الوصيفات والتابعات بل والراقصات النوبيات .

وفى جبانة طيبة ، وبخاصة على جانبى الطريق الصاعد للمعبد ، وفى علوة عبد القرنة ، وفى المرتفع الذى يطل على الدير البحرى ، نرى مقابر كثيرة لموظفى ذلك العهد فقد حكم منتوحوتب الثانى واحداً وخمسين سنة تمتعت فيها البلاد بالرفاهية والاطمئنان ، وترك كثير من رجال بلاطه مقابرهم على مقربة من قبر سيدهم أمثال أختوى وحننو والوزير إيبى ، الذى عثرت بعثة متحف المتروبوليتان فى فنائه الخارجى على مجموعة من الرسائل التى كتبها أحد كهنة الروح لذلك الوزير ، وكان يسمى « حقا نخت » وعثروا أيضا على كل ما تبقى من مواد التحنيط وما كان معها من أوان وأدوات ، وضعها مخبأة فى مكان فى ذلك الفناء بعد تحنيط الوزير .

شكل رقم (١) : هرم سقارة المدرج والمبانى التى حوله كما كانت عند تشييدها - صورة لنموذج حديث الصنع .

شكل رقم (٢): أهرام الجيزة الثلاثة: من يمين الصورة إلى يسارها ، هرم خوفو (الهرم الأكبر) ثم هرم خفرع (الهرم الثانى) ثم هرم منكاورع (الهرم الثالث).

شكل رقم (١) : هذا النمط من الرقص يعود إلى الدولة القديمة

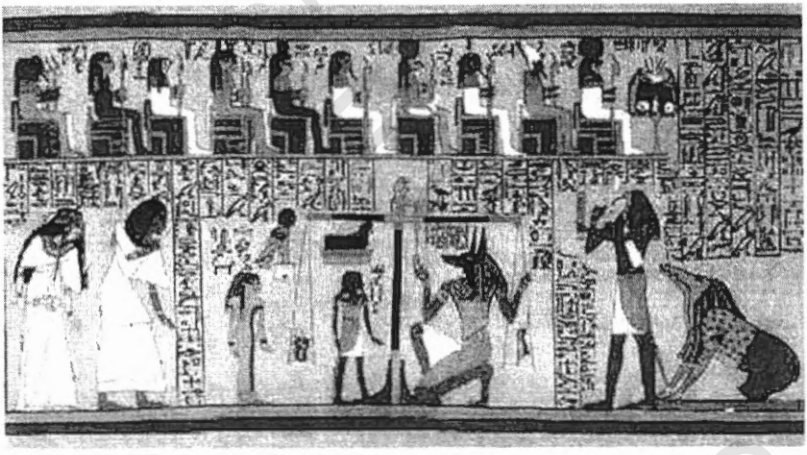

شكل رقم (٢): رحلة الجسد بعد الموت (التحنيط الفرعوني)

شكل رقم ٣
«سنفرو» مؤسس الأسرة الرابعة يرتدى ملابس عيد «السد» . من إحدى لوحاته التى عثر عليها فى حفائر دهشور عام ١٩٥١ .

شكل رقم ٤ : الإلهة «سخمت» تعانق «سنفرو» . جزء من أحد المناظر التى كانت فى معبد الوادى بدهشور ، مازالت محتفظة بما عليها من ألوان ؛ وتظهر لنا المستوى العظيم الذى وصل إليه فن النقش فى ذلك العهد المبكر فى الحضارة المصرية .

شكل رقم (٥) : الهرم الاحمر - هرم سنفرو - دهشور

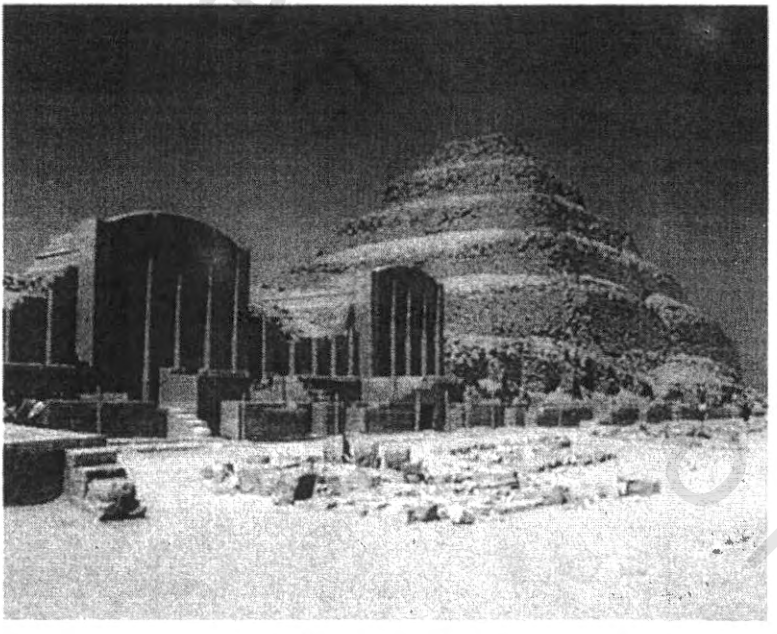

شكل رقم (٦) : هرم زوسر - سقارة

شكل رقم (٧) : السيدة «نفرت» زوجة الأمير «رع حتب» أحد أبناء الملك سنفرو ، وقد عثر على هذا التمثال مع تمثال آخر لزوجها فى قبرهما بميدوم، والتمثالان فى المتحف المصرى بالقاهرة .

شكل رقم ٨

الجـزء الأعلى من تمثـال «حم إيون» أحد أبناء سنفرو ، عثر على قبره فى الجبانة الغربية للهرم الأكبر وتمثاله الآن فى متحف هيلدزهيم بألمانيا . وقد أشرف «حم إيون» على تشييد الهرم الأكبر فى فترة من فترات بنائه.

شكل رقم ٩

تمثال الملك خفرع من حجر الديوريت ، وخلف رأسه الإله حورس يحميه . ولا شك فى أن هذا التمثال ليس آية من آيات الفن المصرى فحسب بل هو من أعظم ما أخرجته عبقرية المثال فى جميع العصور والبلاد .

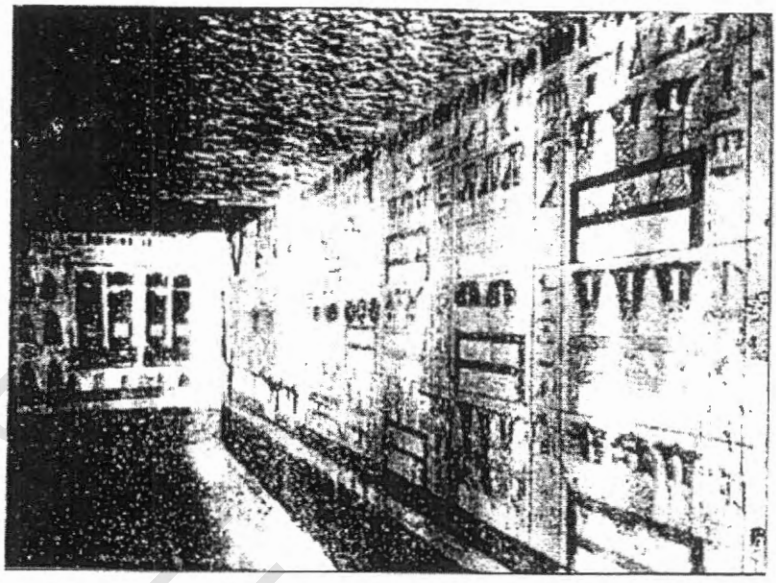

شكل رقم (١٠) : منظر فى مقبرة «بى عنخ» الملقب باسم «سثو» .

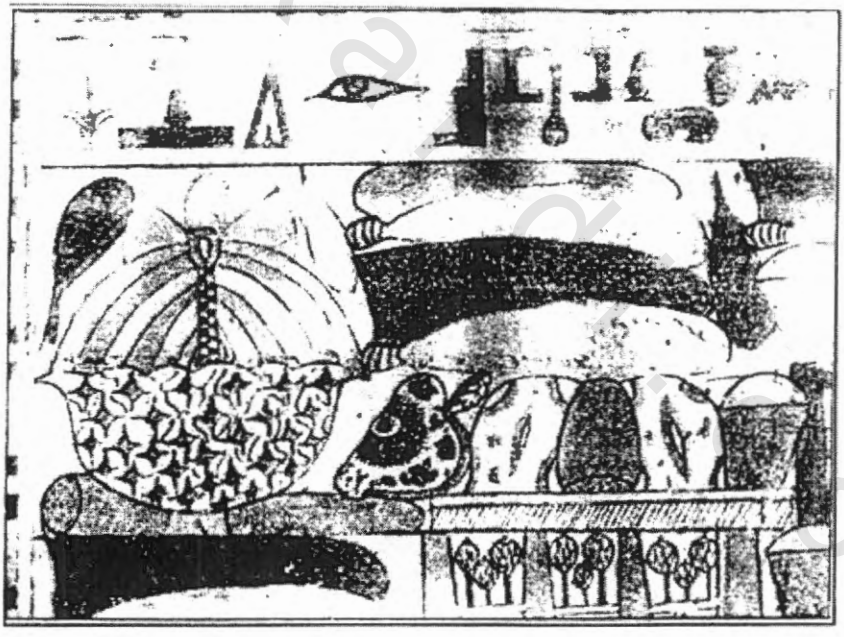

شكل رقم (١١): جزء من الجدار المقابل فى المقبرة ذاتها ، وهى من أواخر أيام الأسرة السادسة وقد لونت جدرانها بمناظر القراين والأدوات المختلفة . عثر على هذه المقبرة إلى الشرق من معبد (إسيسى) عام ١٩٥٢ .

شكل رقم ١٢
القطعة الكبرى من حجر بالرمو ، وعليها سنوات حكم بعض الملوك وأهم ما حدث وما تم فى أعمال كل سنة .

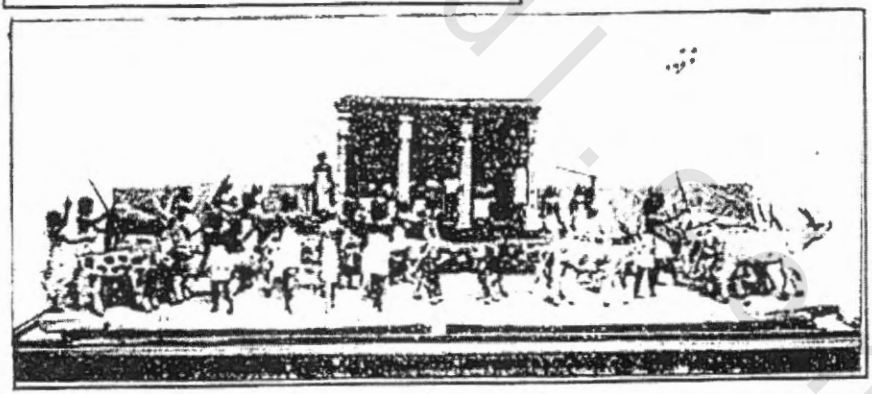

شكل رقم ١٣ : نموذج لأحد الأثرياء وقد جلس يحيط به الكتبة والحراس يستعرض قطيع ثيرانه ويستمع إلى ما يقدمه الرعاة من بيانات – من مقبرة «مكت رع» من الأسرة الحادية عشرة ، وقد عثر عليه فى الأقصر مع أكثر من عشرين نموذجا آخر تمثل مظاهر الحياة اليومية المختلفة.

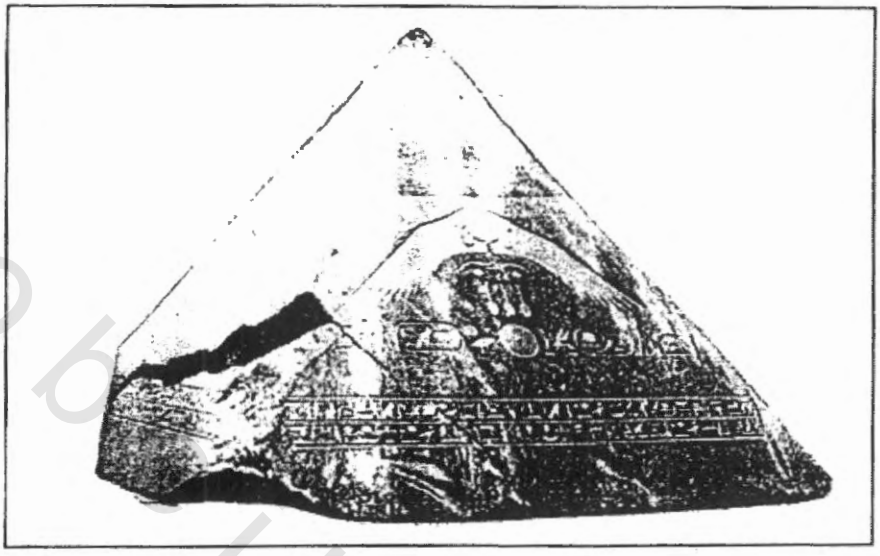

شكل (١٤) : هرم من الجرانيت كان فوق هرم أمنمحات الثالث بدهشور ، وهو الآن في المتحف المصرى بالقاهرة .

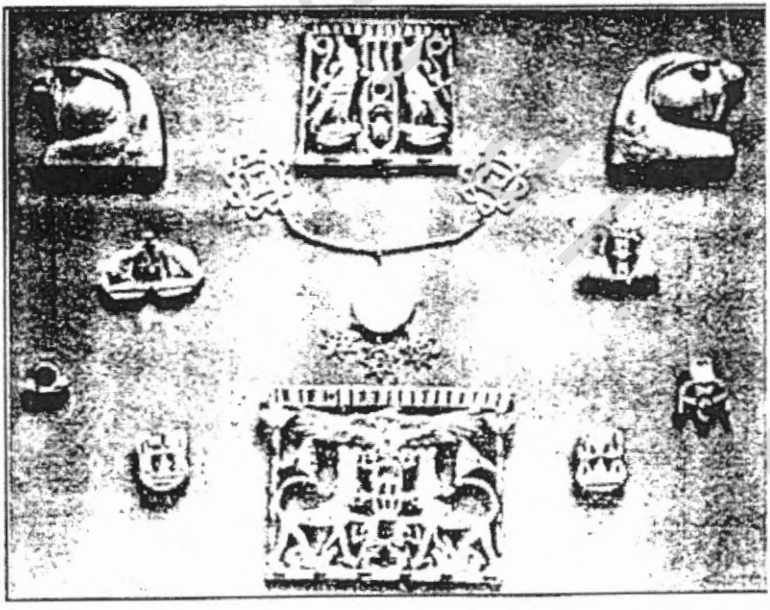

شكل رقم ١٥ : مجموعة من حلى الأسرة الثانية عشرة . ونرى عليها اسم الملك أمنمحات الثانى . وتعتبر الأسرة الثانية عشرة العصر الذهبى لصناعة الحلى فى مصر الفرعونية .

رسائل حقا نخت [1] :

تصادف الباحث فى التاريخ المصرى صعوبات جمة عند محاولته ترك أعمال الملوك والحديث عن الحياة اليومية التى كان يحياها الشعب . لقد وصلت إلينا مناظر كثيرة للحياة اليومية مرسومة على جدران المقابر ، كما وصلت إلينا عشرات الآلاف من قطع الآثار التى كان يستخدمها الشعب ، ويمكننا وصف هذه وتلك ، ويمكننا أيضا الحديث عن أصحابها ومحاولة خلق صورة فى أذهاننا للحياة التى كان يحياها هؤلاء الناس ، ولكن مهما بذلنا من مجهود فإن الصورة تظل ناقصة ، وإن استطعنا رسم خطوطها الرئيسية فإن التفاصيل تظل غير واضحة فضلاً عن أن لونها يظل باهتا ، وبعبارة أخرى لا يمكن أن تكون تلك الصورة كاملة كما نحب .

ولهذا رحب جميع المشتغلين بالدراسات المصرية برسائل « حقا نخت » عند إذاعة نبأ اكتشافها لأنها جزء من صميم الحياة ، شىء نابض حـــى ، وكأن « حقا نخت » أزاح بيده ستاراً رأيناه خلف بيته وأبنائه ، وتحدث إلينا قليلا فعرفنا منه جانبا من حياته وشخصيته ، ولكن سرعان ما عاد ذلك الستار إلى مكانه مرة أخرى ولم يبق أمامنا غير التعقيب على ما رأيناه .

كان « حقا نخت » كاهنا لروح الوزير « إيبى » ويدخل فى اختصاصه إدارة الأملاك التى أوقفها ذلك الوزير للصرف من ريعها على مقبرته ، وكان من بينها ضيعتان ربما كانت كلتاهما على مقربة من منف أو أن واحدة منهما كانت فى الشمال والأخرى فى الجنوب . وكان « حقا نخت » يسافر من آن لآخر إلى الشمال بعد أن يترك لابنه الأكبر واسمه « مرسو » إدارة بيته وأملاكه التى على مقربة من طيبة ، كما كان ينيبه عنه فى القيام بوظيفة الكاهن عند غيابه .

وتصور لنا تلك الرسائل شخصية « حقا نخت » فنراه رجلا حريصا على المال ، خبيثا فى معاملاته شديداً فى محاسبة إبنه الأكبر ، غير واثق من حسن تصرفه ، ولكن فيه أكثر من نقطة ضعف واحدة إذا كان هناك أمر من الأمور يتعلق بابنه المدلل الصغير أو محظيته الشابه . كان يرسل إلى ابنه الأكبر رسالة بعد أخرى من منف ، ونحن نأسف لأنه لم يصل إلينا إلا جزء من تلك الرسائل ، كما أنه لم يسعدنا الحظ بالعثور على ردود ابنه . ولا يتسع المقام هنا لسرد كل ما ورد فى تلك الرسائل لكنا نشير إلى بعض ما يمكننا أن نستخلصه منها .

تثبت لنا هذه الرسائل عودة الصلة بين الشمال والجنوب وعودة الأمن إلى ما كان عليه من قبل إذ كان فى وسع هذا الكاهن السفر المستمر وجمع المحاصيل والإتجار فى بعض السلع ، دون أن يقع عليه أى اعتداء أو يتعرض للأذى . وأقدم تلك الرسائل هى التى كتبها « حقا نخت » بعد أن عاد من ضيعة « دد إسوت » إلى ضيعة أخرى إلى الجنوب منها . كان الوقت صيفا وكان النيل على وشك الفيضان ويظهر أن « مرسو » أرسل إلى أبيه يظهر تخوفه من عدم احتمال الجسور فأرسل إليه أبوه الرد محذراً متوعداً . ويظهر أن النيل فى تلك السنة لم يغمر الحقول كما يجب ، ولهذا لم يأت المحصول وفيرا ونقصت الأقوات فى كل مكان ، وبخاصة فى الدلتا حيث عمت المجاعة ، وها هو حقا نخت يكتب لابنه « إن الإبن يخاطب أمه وكاهن الروح حقا نخت يتحدث إلى أمه إيبى وإلى حتبت (إحدى قريبات حقا نخت » : كيف حالكم فى معيشتكم ورفاهيتكم وصحتكم ؟ لا تقلقوا على فإنى حى وبخير . إنكم أشبه بمن يأكل

حتى يشبع ويغمض عينيه بينما يموت الناس جوعا فى البلاد كلها . لقد نزلت إلى الجنوب وحصلت على مؤونة لكم بقدر ما استطعت . أليس النيل منخفضا جدا ؟ حسنا فقد جاءنا المحصول متناسب مع ذلك . كونوا صبورين يا من سأذكر أسماءكم فإنكم ترون أننى تمكنت من إعالتكم حتى اليوم » ، ويستمر فى خطابه فيذكر أسماء كل فرد فى العائلة والمخصص الذى سيرسله لأحله ثم يستمر قائلاً : فلا تغضبوا بسبب ذلك ،

فإن جميع من فى المنزل وكذلك الأطفال يعتمدون على وكل شيء هو ملكى . إن نصف الحياة خير من الموت الكامل ، هم يقولون إن الجائع يحب أن يجوع ، ويريد حقا نخت أن يقنع أقاربه بأنهم أحسن حالا ممن هم فى الشمال، فيقول : لماذا أخذوا يأكلون الرجال والنساء هنا ، لا يوجد أحد فى أى مكان يحصل على مثل هذه المؤن . يجب أن تدبروا أنفسكم حتى أصلكم فإنـــى سأقضـــى شهور ، الشمس ، هنا[1] .

وفى الخطاب نفسه يعطى حقا نخت تعليماته إلى إبنه وإلى ، حتى ، المشرف على زراعته فيخاطبهما معا ، اعطو هذه المؤن إلى رجالى فقط عندما يقومون بالعمل . ضعوا ذلك فى ذهنكم ، وأعدوا أكثر ما تستطيعون إعداده من الأرض ، احرثوا الأرض ولا تكفـوا عن العمل ، واعلموا أنكم إذا كنتم مجتهدين فسأدعو لكم بخير ، ما أسعدكم لأنى أعولكم ، ولا يترك حقا نخت إبنه الأكبر دون أن يسدى إليه النصح لإنماء ثورته فيكلفه بأن يرسل ، حتى بن نخت ، لاستئجار حقلين ، ولكنه يوصيه ألا يعطى الإيجار إلا من ثمن الأقمشة التى كان قد أرسلها من الشمال ، ويأبى الشيخ إلا أن يذكر لابنه أنه يجب عليه أن يمدح نوع الأقمشة عندما يقدمها للبيع وأن يقول إنها من أحسن الأنواع . ويعود ثانية إلى الأرض التى يجب استئجارها فينصح ابنه بأن يتأكد من أن الأرض جيدة وريها ميسور . ويستطرد الشيخ فيقول لابنه أن يعطى ، حتى بن نخت ، أجراً شهرياً مقداره خمس ويبات من الشعير وأن يعطى عائلته فى أول كل شهر ويبتين ونصف زيادة على ذلك ، ويحذره من مخالفة أمره وأنه إذا أعطاهم زيادة فإنه سيستقطع ذلك من مخصصاته هو ، ولكن قبل أن ينتهى من كتابة خطابه يعود إلى موضوع مرتب ، حتى بن نخت ، مرة أخرى فيقول لابنه بألا يعطيه الويبات الخمسة التى ذكرها بل يعطيه أربعة فقط .

يكفينا هذا القدر لإعطاء صورة عن ذلك الشيخ الشحيح الماكر ، ولننتقل إلى جزء آخر من تلك الرسائل لنرى جانبا من شخصيته . كان حقا نخت يقسو على ابنه الأكبر ويستحثه دائماً على العمل ويهدده فى كل رسالة من رسائله ، ويحاسبه حسابا

عسيرا على دخل كل حقل من من الحقول ، حتى أخشاب الأشجار لا ينساها ولا ينسى بيعها . وكان له ولدان آخران يساعدان ، مرسو ، فى العمل وكانوا جميعا متزوجين وكان له ابنان آخران صغيران أحدهما يساعد إخوته فى أعمالهم فى الزراعة أما الثانى فكان مازال طفلا وكان يتمتع بحب أبيه وعطفه . ويأمر حقا نخت ابنه الأكبر بأن يعطيه ما يريد من مؤن ، ، وبلغه تحياتى ألف مرة ، اعتن به وارسله إلى مباشرة بعد أن تنتهى من زرع الأرض ، ولكن ، سنفرو ، المدلل يرفض السفر . وفى رسالة أخرى نرى حقا نخت يكتب فى رسالة : ، إذا كان سنفرو يريد العناية بالثيران فاجعله يعتنى بها ، لأنه لا يحب الجرى هنا وهناك معك فى الزراعة ، ولا يريد الحضور إلى هنا ليكون معى . دعه يفعل ما يشاء ويتمتع بما يريد ، .

لقد فقد حقا نخت زوجته منذ وقت غير قصير وأصبح أصغر أطفاله موضع حبه ، وكان فيه ضعف ظاهر له . كان بيت ذلك الكاهن ، كما نستشف من رسائله ، مملوءاً بالأقارب والأطفال . يسأل عنهم جميعاً ، كما يشير من آن لآخر إلى من كان فى ذلك البيت من خدم أو إماء ولكن واحدة منهن وتسمى ، إيو إن حب ، اصطفاها لنفسه محظية له بعد زوجته وكان يخصها بعطف خاص أثار حسد أبنائه والخادمات الآخريات . ويظهر أن ، إيوت إن حب ، كتبت له خطابا تشكو فيه من إحدى الخادمات . فما كان من حقا نخت إلا أن صب غضبه على ابنه المسكين ، مرسو ، : ،اطرد الخادمة ، سنن، من منزلى فى الحال .. وإذا بقيت ، سنن ، يوما واحداً فى المنزل فإنك أنت الملوم إذا جعلتها تسبب أى أذى لمحظيتى . لأى غرض أعولكم ؟ وماذا تستطيع محظيتى أن تفعله ضدكم أنتم أيها الأولاد الخمسة ؟ سلم لى على أمى ، إيبى ، ألف مرة ، ومليون مرة وسلم على ، حتبت ، وجميع العائلة وسلم لى على ، نفرت ، أما عن موضوع إيذاء محظيتى فإنى أحذرك . إنك لست شريكا لى ، وخير لك أن تسكت ، ، وفى خطاب آخر كتبه بعد ذلك ، طلب حقا نخت من ابنه أن يرسل له محظيته الى الشمال ويقول له فى هذا الخطاب : ، انظر إنها محظيتى ومن المعلوم جيدا أنه يجب إحسان معاملة محظية الإنسان ، ، ويتحدث كثيرا فى هذا المعنى إلى أن يختمه بقوله : ، كيف يمكننى أن أعيش معكم فى مكان واحد إذا كنتم لا تحترمون محظية لأجل خاطرى ، .

إن القارىء لهذه الرسائل ، الذى يدرس تفاصيلها ويدقق فى استطراد جملها ، لا يسعه إلا أن يحس بأن آلاف السنين قد طويت ، ويرى أمامه أحد صغار الملاك المحبين للمال الذين مازال يعيش الكثيرون منهم بيننا اليوم فى قرى الريف : نرى بينهم مئات من أمثال ، حقا نخت ، الذين لا يثقون فى غير أنفسهم ويعتقدون أن

أبناءهم لا يهمهم إلا تبديد ما جمعوه ، وهم برغم حرصهم على أموالهم يحملون فى صدورهم قلوبا رحيمة ولهم نقط ضعف خاصة نحو بعض أبنائهم أو بعض من يظهرون لهم الحب والعطف .

إن فائدة تلك الرسائل لم تقف عند مدنا بمعلومات جغرافية عن بعض قرى الصعيد والوجه البحرى ، أو تنحصر فائدتها فيما نقف عليه من معلومات عن المعاملات بين الناس فى تأجير الأراضى أو أجور العمال ، ولكنها ترينا الكثير من الحياة الداخلية لإحدى العائلات المتوسطة الحال التى عاشت على مقربة من الأقصر قبل أربعة آلاف سنة. وسواء أحسسنا بالعطف على « حقا نخت » والتمسنا له العذر أو رثينا لحال ابنه « مرسو » وما كان يلاقيه من أبيه ، فإننا فى كلتا الحالتين نحس بأننا عشنا معهم بعض الوقت ، ونكاد نتصور « مرسو » المسكين عندما أحضر تلك المجموعة من الرسائل معه إلى القبر الذى كان مكلفا بالعناية بـــه . وهو قبر الوزير « إيبى » لقراءة بعض ما فيها ، ونكاد نتصوره عندما ألقى بها ملفوفة مع بعضها بين المهملات عندما كان العمال يحفرون قبرا آخر ، فلما انتهى العمل قذفوا بها ومع كل الأشياء الأخرى التى لم يكن العمال فى حاجة إليها فى تلك الفجوة فظلت هناك آلاف السنين حتى جاء اليوم الذى رأت فيه النور وأحيت سيرة أصحابها .

يكفينا هذا القدر عن حقا نخت ورسائله ولننتقل الآن لإتمام الحديث عن هذه الأسرة ونتكلم عن الفترة التى تلت وفاة منتوحوتب الثانى حوالى عام ٢٠١٠ قبل الميلاد.

خلفاء منتوحوتب الثانى :

حكم منتوحوتب الثانى بعد استيلائه على إهناسيا أكثر من اثنين وأربعين عاما بذل أثناءها كل ما فى وسعه من جهد لإصلاح ما تصدع من بنيان مصر ، وجعلها بلدا واحدا كما كان الأمر من قبل ، فتحقق له الكثير مما أراد وخلفه على العرش ابنه منتوحوتب الثالث المسمى « سعنخ كارع » الذى اتبع سياسة أبيه فى تعمير البلاد وإنشاء المعابد فى الدلتا والصعيد . وتقدمت الفنون فى عهده تقدما كبيرا خصوصا فن النقش ، كما اهتم اهتماما غير قليل بالمحاجر والمناجم التى نعرف من نقوشها الشىء الكثير ، مثل حملته التى أرسلها فى العام الثامن من حكمه تحت إمرة مدير بيته المسمى « حننو » وكان معه ثلاثة آلاف شخص ، ذهبوا عن طريق وادى الحمامات إلى شاطىء البحر الأحمر ، جمعهم « حننو » من شباب مصر الوسطى والصعيد (من إهناسيا حتى الجبلين) وأعد لهم ما يلزم من معدات ، وخصص لكل رجل قدرا من الماء وعشرين رغيفا صغيرا فى اليوم . وحفر لأجل تلك المهمة صهاريجا للمياه

وعشرين بئرا فى الطريق ، فلما وصلوا إلى الشاطىء صنعوا السفن للنزول بها إلى بلاد بونتن ثم عادوا ومعهم كل ما وجدوه فى موانئ تلك البلاد ، وعند عودتهم مروا ثانية بوادى الحمامات فأحضر ، حنتو ، ورجاله معه بعض أحجار الجرانيت لأجل تماثيل المعابد .

وأراد منتوحوتب الثالث أن يبنى قبرا ومعبدا يماثلان ما أقامه أبوه فاختار لذلك واديا فى الجبل الغربى من طيبة على بعد لا يزيد عن ثمانمائة متر إلى الجنوب الغربى من الدير البحرى ، وبدأوا بتمهيد المكان وإعداد الطريق ثم أخذوا فى حفر القبر ، ولكن العمل لم يتقدم أكثر من تلك المرحلة . وبالرغم من أن العمل لم يكد يبدأ بداية جدية فقد عثر على بعض آثار هذا الملك فى ودائع الأساس التى كانت فى حفرات تحت المعبد ، كما شيد كثير من رجاله مقابرهم على مقربة من ذلك المكان وأهمها قبر ، مكت رع ، الذى كان من أهم رجال حكومته وكان قبل ذلك من كبار الموظفين فى عهد أبيه ، كما عثر أيضا على قبر إنيوتف الذى تولى بعض وظائف أبيه ، مكت رع ، بعد وفاته .

عثرت بعثة متحف المتروبوليتان على كثير من مقابر موظفى هاتين الشخصيتين الكبيرتين ، كما عثرت فى قبر ، مكت رع ، نفسه على كثير من الآثار الهامة وبخاصة فى حجرة الدفن إذ عثروا إلى جانب التابوت على ما يقرب من ألف ومائتى قطعة مختلفة من نماذج الأسلحة والأدوات المختلفة من فؤوس للقتال وعصى وأقواس وسهام ودروع وغيرها . ولكن الحظ كان يحتفظ للمكتشفين بما هو أهم من ذلك إذ وجدوا فى السرداب ، فى حجرة قطعت فى الصخر تحت أرضية المقبرة وسدت سدا محكما ، مجموعة من النماذج الخشبية وعددها ثلاثة وعشرون تمثل جميع ممتلكات ، مكت رع ، وهى وإن كانت صغيرة الحجم نسبيا إلا أن صانعيها عنوا بتفاصيلها عناية كبرى فأصبحت مصدرا من أهم مصادر دراستنا للحياة اليومية فى ذلك العهد . ففيها الخدم يحملون القرابين ، وأهم تلك النماذج معروضة الآن فى متحف القاهرة وبعضها فى متحف المتروبوليتان فى نيويورك (١) .

لم يزد حكم منتوحوتب الثالث على اثنى عشر عاما ، تلاه بعدها على العرش ابنه المسمى سنوسرت وكان يحمل لقب ، والد الإله ، ولكنه لم يبق طويلا على العرش، ثم تلت وفاته فترة عدم استقرار استمرت نحو خمس سنوات حكم خلالها عدة أشخاص ربما كان من بينهم ، قا كا رع – إنيوتف ، والملك ، إيبى خنت إب رع ، وحورس ، جرج تاوى إن ، والملك ، واج كارع سجر سنى ، الذين لم يكن لهم إلا نفوذ

محدود فى الجنوب وبخاصة فى النوبة .

ولكن بعد هذه السنين الخمس المضطربة نرى على العرش الملك « منتوحوتب الرابع وهو المسمى « نب تاوى » ، ولا نعرف عنه إلا أنه حكم فترة لا تزيد عن عامين كان من خلالها مهتما إهتماما كبيرا بإرسال البعثات إلى المحاجر المختلفة ، وبخاصة إلى وادى الحمامات ، لقطع الأحجار وإلى وادى الهودى جنوب شرقى أسوان للحصول على حجر الجمشت (الأماتيست) [1] .

وبالرغم من تلك المدة القصيرة التى قضاها هذا الملك على العرش فقد حدثت خلالها أحداث هامة مثل بعثاته إلى الصحراء واحتفاله بعيد « السد » فى العام الثانى من حكمه أى بعد ثلاثين سنة تماما من الاحتفال الذى أقامه منتوحوتب الثانى فى العام التاسع والثلاثين من حكمه ، مما يجعلنا نرجح أن الإحتفال بالعيد الثلاثينى فى ذلك الوقت بالذات كان يقام كل ثلاثين سنة دون التقيد بحكم ملك من الملوك .

وأهم حادث يرتبط بحكم هذا الملك هو قيام وزيره المسمى « أمنمحات » ومعه عشرة آلاف من أقاليم الجنوب والشمال بحملة إلى وادى الحمامات لقطع الأحجار اللازمة لتابوت له ولتشييد معابد الجنوب ، وأنهم أتموا ما ذهبوا من أجله وتركوا عدة نقوش فى ذلك الوادى يسجلون فيها أعمالهم المختلفة .

كانت تلك البعثة إلى وادى الحمامات آخر شىء نعرفه عن الأسرة الحادية عشرة ، وعن حكم ذلك البيت الطيبى الذى ظل فى الحكم نحو ١٤٣ سنة ، إذ يتغير المنظر فجأة ونرى أمورا كثيرة متلاحقة أهمها استيلاء ملك جديد على العرش وتأسيس أسرة حاكمة جديدة ، وانتقال العاصمة إلى الشمال . ونرى أن ذلك الشخص الذى قام بذلك الانقلاب ، إن كان يجوز استخدام مثل هذا التعبير ، يسمى « أمنمحات» ، فهل هو الوزير الذى ذهب إلى وادى الحمامات ؟ يكاد يكون مؤكدا أنه هو الشخص نفسه ، ونكاد نجزم أيضا أن جمع ذلك العدد الكبير من الجنود لم يكن لأجل إحضار أحجار يكفى لإحضارها بضع مئات من الرجال ، أو على أكثرما عرفناه ثلاثة آلاف رجل كما حدث فى عهد الملك الذى كان قبله ، وهو رقم لم يسمع به من قبل ، وربما كان عدد الجنود كبيرا لأجل إعداد الطريق وحفر الآبار من النيل حتى شاطىء البحر ثم إنشاء السفن والذهاب إلى بونت وليس لإحضار أحجار من وادى الحمامات فقط . وربما جمع الوزير أمنمحات هذه الآلاف العشرة من الجنود توطئة لعمل آخر وهو الاستيلاء على الملك لنفسه ، ووضع حد لعدم الإستقرار الذى أخذ ينتشر فى البلاد منذ وفاة منتوحوتب الثالث أى مدى سبع سنوات كاملة .

الأسرة الثانية عشرة

أمنمحات الأول :

واستتب الأمر لأمنمحات فترة من والاه من حكام الأقاليم فى مناصبهم بعد أن وضع الحدود بينهم وبين جيرانهم . وقبلوا ما فرضه عليهم من أموال وما ألزمهم به من حق الحكومة فى الإشراف على الأمور الداخلية فى الأقاليم ، أما من وقف فى وجهه فقد نحاه وولى مكانه واحدا ممن يثق فيهم . وما من شك فى أن المهمة كانت صعبة وكانت البلاد فى حاجة إلى شخص فى مثل كفاءته وجرأته فتم له ما أراد من إعادة الأمن إلى نصابه .

كان تنظيم الأمور الداخلية أهم الواجبات التى واجهته عند توليه الحكم ، وسواء أكان اختيار مكان للعاصمة على مقربة من منف كان من تفكيره هو أو كان فى عهد الملك منتوحوتب الرابع (نب تاوى رع) فإن رأيه استقر على نقل عاصمة الملك إلى الشمال بعد استتباب الأمر له وسمى المكان الجديد الذى بنى قصوره ودور حكومته فيه باسم « إئت تاوى » أى القابضة على الأرضين مشيرا بذلك إلى الشمال والجنوب .

وتابع أمنمحات سياسة سلفه فى الإهتمام بالجنوب فوصل نفوذ مصر إلى دنقلة، ومن المرجح أنه تأسس فى عهده ذلك المركز التجارى فى مدينة كرمة فى شمالى السودان بعد أن شيد حصن سمنه جنوبى الشلال الثانى .

ولم تكن حدود مصر الشرقية أو الغربية أقل حظاً فى عنايته بها . فقد وضع ذلك الملك النشيط حدا لغارات البدو من كلا الصحراوين ، وبنى سلسلة من التحصينات على حدود الدلتا الشرقية كانت تسمى باسم حائط الأمير ، كما أقام أيضا سلسلة حصون أخرى على حدود الدلتا الغربية مازالت بقايا واحد منها قائمة فى وادى النطرون ، وكان فى داخله معبد له بوابة من الجرانيت نقش عليها إسمه (١) .

لم يكن أمنمحات إلا رجلا عصاميا من الشعب رفعه ذكاؤه وجده وحسن إدراكه للأمور إلى المكان الذى يستحقه ، ولكنه لقى كثيرا من المصاعب ، وقامت كثير من القوى الرجعية ضده فكان من بين أساليب رده على خصومه كتابة البردية المعروفة باسم تنبؤات « نفرتى » (نفر روهو) المحفوظة الآن فى متحف ليننجراد

والتى تحدثنا عنها قبل الآن ، وهى التى أطنبت فى وصف ما سيحل بمصر من فوضى ، وأن إنقاذها سيتم على يدى « ملك سيأتى من الجنوب يسمى «أمينى » ابن امرأة من النوبة ويولد فى الصعيد .. سيهزم الأسيويون أمام مذابحه ، ويقع الليبيون صرعى أمام لهيبه ، وسيبنى « حائط الأمير » ، ولن يتيسر للأسيويين بعد ذلك النزول إلى مصر » ، وليس اسم « أمينى » إلا اختصارا عاديا لاسم أمنمحات ، الذى نرى أصله الجنوبى فى ملامح وجهه ووجوه أسرته من بعده . ولم يكن المقصود من كتابة تلك البردية إلا الترويج بين الشعب لهذا الحاكم الجديد ومحاولة إقناع الناس بأن اختياره لإنقاذ مصر أمر أرادته الآلهة منذ أبعد الأزمنة .

وكان من الطبيعى أن يهتم أمنمحات بطيبة ، ذلك البلد الذى نشأ فيه وعاونه على تولى الملك ، وكان طبيعيا أيضا أن يهتم بإعلاء شأن إلهها المحلى « أمون » وأن يقيم له المعابد ، ولكن هذا كله لم يمنعه من نقل عاصمة البلاد إلى مقربة من منف وبناء مقره الجديد فى المنطقة التى تقع الآن على مقربة من قرية اللشت ، وبناء مقره الأبدى على مقربة منها .

ولم يقتصر نشاط هذا الملك على طيبة وعلى عاصمته الجديدة بل نرى آثار نشاطه فى وجهات كثيرة من مصر ، وبقايا معابده منتشرة فى سيناء وفى شرقى الدلتا وبخاصة فى الختاعنة (مركز فاقوس) وفى تل بسطه (الزقازيق) كما نرى بقايا معبد له فى مدينة الفيوم (كيمان فارس – كروكوديلوبوليس) إذ كان أول ملوك تلك الأسرة الذين اهتموا اهتماما خاصا بذلك الإقليم لاستصلاح أراضيه والاستفادة من بحيرته . وورد اسمه على كثير من مقابر ولوحات الموظفين الذين عاشوا فى عصره، ولكن أكثر ما عثر عليه علماء الآثار كان على مقربة من مجموعته الهرمية فى اللشت إذ عاد أمنمحات إلى التقليد القديم الذى كان سائدا فى الدولة القديمة من بناء الأهرام لتكون مدافنا للملوك وبناء معبد جنازى إلى الشرق منه ، ثم طريق موصل إلى الوادى وتشييد معبد اخر عند بداية ذلك الطريق . وعثروا هناك على كثير من الأحجار المنقوشة من معبديه وعلى كثير من بقايا الأعمدة والتماثيل كما عثروا أيضا على بعض ودائع الأساس تحت أرضية ركن من الهرم ، وبعض أركان المعبد . وكشفت تلك الحفائر أيضا عن حقيقة هامة وهى أن الهرم مشيد بأحجار أخذوا الكثير منها من المعابد أو المقابر الأقدم عهدا ، ومن بينها أحجار منقوشة أتوا بها من معابد لبعض ملوك الأسرة الرابعة من الجيزة والأسرة الخامسة من سقارة ، كما كشفت أيضا عن وجود مصاطب كثيرة داخل سور الهرم وخارجه لكبار موظفى الملك وبعض أفراد عائلته .

ونشط أمنمحات فى استغلال المحاجر والمناجم ، وتسهيل التجارة ونجح فى سياسته مع أمراء الأقاليم الذى هادن الكثير من بينهم بعد أن اطمأن إلى ولائهم له ، ولكنه أبقى لهم على ثرواتهم والجزء الأعظم من نفوذهم فى مناطقهم مع اعترافهم بسلطانه عليهم ودفع الضرائب المفروضة عليهم ، فكانت أيامه نعمة على كثير من هؤلاء الحكام فبنوا المقابر العظيمة فى بلادهم أمثال أمراء بنى حسن .

ويمكننا أن نتوقع من أى شخص فى مكان أمنمحات أن يغضب الكثيرين ويبطش بالمناوئين له ، ولهذا لا نعجب إذا وجدنا أيامه الأخيرة مليئة ببعض المتاعب، بالرغم من أن البلاد تمتعت بوجه عام بطمأنينة ورخاء لم تعرف لهم مثيلا منذ الدولة القديمة .

استولى أمنمحات على الملك وقد جاوز سنى الشباب الأولى إذ كان قبل ذلك وزيرا ، ولهذا عندما أتم عشرين سنة وهو ملك ، وبدأت تتقدم به السن أراد الاطمئنان على مصير الملك الذى أنشأه وخاف من أن تعصف به يد الأطماع أو المنافسات بعد موته ، فأعلن ابنه سنوسرت شريكا له فى الملك ، ولكن النفوذ الأكبر ظل فى يد الملك الشيخ وكان يكلف ابنه من آن لآخر بالقيام ببعض الحملات الحربية ليتعرف على بلاده ويوطد نفوذ مصر على حدودها .

ولكن الأيام طالت بأمنمحات حتى وصل حكمه إلى ثلاثين عاما أى أنه حكم منذ عام ١٩٩١ ق.م. إلى عام ١٩٦١ ق. م. ولم يقدر له أن يموت وهو فى شيخوخته ميتة هادئة بل مات غيلة وهو فى قصره ، إذ انتهز أعداؤه فرصة غياب ابنه وولى عهده وشريكه فى الملك سنوسرت ، فى حملة على ليبيا ودبروا مقتله ، وربما كان ذلك الاغتيال بسبب التنافس على العرش بين أفراد العائلة نفسها إذا استطاع المتآمرون أن يصلوا إليه فى مخدعه . ونعرف بعض التفاصيل عن تلك النهاية من برديتين إحداهما هى بردية شخص يسمى « سنوهى » (١) كانت تربطه بالعائلة المالكة رابطة من قرابة ، وكان مع سنوسرت فى حملته عندما وصل رسول من القصر يحمل نبأ مصرع الملك . فأمر سنوسرت بإخفاء الأمر عن الجيش وعاد فى الحال مسرعا إلى العاصمة . وكان سنوهى على مقربة من خيمة الأمير واستمع إلى ذلك الخبر . ولسنا نعرف ما الذى أفزعه حتى هرب فى جنح الظلام وأخذ يسير من بلد إلى آخر حتى

استطاع مغافلة الحراس على الحدود الشرقية وهرب إلى فلسطين ومنها إلى لبنان حيث أقام هناك ، وأثرى وتزعم إحدى القبائل ثم حن فى شيخوخته للعودة إلى مصر ليقضى فيها ما تبقى له من أيام ، وقد حقق له الملك سنوسرت الأول رغبته .

كانت وفاة أمنمحات فى اليوم السابع من الشهر الثالث من شهور الـ « أخت » فى العام الثلاثين من حكمه ، فى يوم يوافق ١٥ فبراير سنة ١٩٦١ ق.م. عند حسابه بتقويمنا الحالى . أما البردية الأخرى التى تهمنا فهى البردية المعروفة بإسم نصائح أمنمحات لابنه (١) ، وقد كتبت دون شك بعد موت الملك وكأنها على لسانه من العالم الآخر يتحدث فيها إلى ابنه ويوصيه كيف يسوس الملك ويشرح له كيف قتلوه .

ينصح أمنمحات ابنه ، وقد صار ملكا ، أن يحترس من رعاياه ولا يظهر بينهم وهو وحيد ، وألا يثق فى أخ أو يعتمد على صديق ، ويذكره بما كان يفعله عندما كان يعطى المحتاج ويربى اليتيم ويجعل من لا يملك شيئا يبلغ هدفه . ولكن « الذى أكل طعامى هو الذى حرض الجنود على ، والذى أطعمته يدى هو نفسه الذى استطاع بواسطتها أن يحدث الفزع » ، ويستمر أمنمحات فى ذكر جحود الذين أغدق عليهم نعمه ثم يقول « كان ذلك بعد تناول الطعام عندما حل المساء ، وخلدت لساعة من الراحة مستلقيا على سريرى ، لأنى كنت متعبا » وعند ذلك سمع صليل الأسلحة ورأى اشتباك حراسه مع المهاجمين ، ولكن سرعان ما حدثت النكبة قبل أن يتمكن الملك من النهوض من فراشه « لو أننى أسرعت وبيدى أسلحتى لجعلت الجبناء يتقهقرون شذرمذر ، ولكن لا شجاع فى الليل ولا قتال لمن كان وحده ولن يتم النجاح دون حام » إذن لقد تمت المؤامرة بالنجاح . ويستمر النص فيذكر أن ذلك قد حدث عندما كان سنوسرت بعيدا ، وتملأ الحسرة نفس الملك من خيانة خدمه وأتباعه الذين رعاهم وعاونهم ، ووضع ثقتهم فيهم فكانوا هم المتآمرون على حياته . ويعدد أمنمحات بعد ذلك ما قام به من إخضاع البلاد لسلطانه وتأمين حدودها واعتراف الناس بأفضاله ، ويذكر أيضا شجاعته فى الصيد وغزوه لإقليم واوات فى النوبة وتأديبه للأسيويين الذين كانوا يغيرون على الدلتا ، ولا ينسى ذكر قصره الذى شيده وزينه بالذهب وحلى

سقفه بأحجار اللازورد ، وكانت أبواب حجراته من النحاس ومصاريع الأبواب من البرونز ، ويختم وصاياه بتحية ابنه وتمنيه النجاح له ليتم ما بدأه ويوصيه بعمل الخير وتشييد المعابد الفخمة المتينة .

كان العام الثلاثون من حكم أمنمحات موافقا للعام العاشر من حكم ابنه سنوسرت إذا احتسبنا الأعوام العشرة منذ إعلانه وليا للعهد وشريكا فى الملك بداية حكمه الحقيقى .

ولم يصل إلى أيدينا حتى الآن أى وثيقة نعرف منها تفاصيل الأيام الأولى لحكم سنوسرت ، لكننا نعرف أنه لم يلق من الصعوبات شيئا لم يتغلب عليه ، واستطاع حقا أن يسير فى الطريق الذى رسمه أبوه العظيم .

خلفاء أمنمحات الأول :

تابع سنوسرت الأول سياسة أبيه وثبت أقدامه لا فى مصر وحدها بل وفى البلاد التى كانت على حدودها . وتوسع جنوبا ، وبدأت كلمة « كوش » ترد بكثرة فى النصوص كمنطقة امتد إليها النفوذ المصرى . وعنى سنوسرت عناية كبرى باستغلال مناجم الصحراء ، فنجد اسمه على لوحات أقامها رؤساء بعثاته إلى الصحراء يذكرون فيها تاريخ عملهم ويمجدون فيها الملك الذى كانوا يعملون باسمه . وكانوا يستخرجون الذهب أو النحاس وغيرهما من بعض تلك المناجم ، كما كانوا حريصين أيضا على استغلال بعض الأحجار نصف الكريمة مثل الفيروز من سيناء والجمشت (الأماتيست) من وادى الهودى ، كما حرصوا أيضاً على الحصول على أصلب الأحجار مثل الجرانيت الذى كانوا يستخرجونه من أسوان ومن وادى الحمامات ، والديوريت الذى كانوا يجلبونه من جبال النوبة فى منطقة إلى الجنوب الغربى من أبو سمبل وهى المحاجر التى استغلها المصريون منذ أقدم العصور لأجل عمل الأوانى ، وكان خوفو وخفرع من ملوك الأسرة الرابعة يحصلون منها على الأحجار اللازمة لتماثيلهم . كما نعرف أيضا اهتمام سنوسرت باستغلال محاجر المرمر فى حتنوب فى شرقى النيل على بعد يقرب من خمسة وعشرين كيلو مترا من تل العمارنة الحالية.

وشيد سنوسرت آثاره فى كثير من جهات مصر ، نجدها فى الكرنك وفى كثير من بلاد النوبة وفى الدلتا وفى الصعيد ، وكان للفيوم نصيب خاص من عنايته ، وشيد هرمه على مقربة من هرم أبيه فى اللشت .

وكان من أهم أعمال تشييده من جديد لمعبد رع فى مدينة هليوبوليس (إيون – عين شمس) . بدأ ذلك فى العام الثالث من حكمه وعندما أتم الثلاثين سنة على

العرش واحتفل بعيده الثلاثيني ، أقام أمام المعبد مسلتين من الجرانيت مازالت إحداهما قائمة حتى الآن فى مكانها هناك . كما شيد فى الكرنك بناء صغيرا كان يستخدم أثناء الاحتفالات لتستريح فيه سفينة الإله أمون رع ، وقد عثر على أحجاره داخل الصرح الثالث الذى شيده الملك أمنتحوتب الثالث ، وقد كان عند هدمه كاملا ولهذا عثروا فى السنوات الماضية على جميع أحجاره تقريبا ، وأعادت مصلحة الآثار تركيبها وهو قائم الآن فى المعبد نفسه ولا يبعد إلا قليلا عن مكانه الأصلى ، ونقوشه من أجمل ما أخرجته يد الفنان المصرى فى أى عصر من العصور . وطال حكم سنوسرت الأول حتى أربى على ٤٤ عاما (١٩٧٢ – ١٩٢٨) منها عشرة مع أبيه وأقل من ثلاث سنوات مع ابنه الذى أشركه معه فى الملك فى عام ١٩٣٠ ق.م.

ولم يكن أمنمحات الثانى كأبيه أو جده فى نشاطه الحربى أو المعمارى ، فقد كانت الحالة الداخلية آمنة مطمئنة بفضل جهود من سبقوه ، كما كانت صلات مصر بغيرها من الأمم صلات صداقة ومودة ، وكان يرسل هداياه إلى أمراء سورية وغيرها ويتلقى منهم أيضاً كثيراً من تلك الهدايا . وقد عثر منذ وقت غير بعيد تحت أرضية معبد الطود جنوبى الأقصر على كمية كبيرة من أوانى الذهب والفضة ، والحلى مع غيرها من الأشياء غير المصرية . وكان نشاط أمنمحات الثانى موجها بصفة خاصة إلى استغلال مناجم المعادن والأحجار نصف الكريمة ، وإرسال البعثات إلى الصحراء لتأمينها .

وكذلك كان حال خلفه سنوسرت الثانى فقد شابهه فى كل من سياسته الداخلية والخارجية ولكن زاد عليه فى عمل مهم وهو تكريس جزء كبير من جهده لعمل مشروعات رى كبيرة فى إقليم الفيوم ، وقد شيد هرمه فى اللاهون وعثر على مقربة منه على القرية التى أقامها للعمال والموظفين الذين أشرفوا على تشييد الهرم وما يلحقه من معابد ، وظلت هذه القرية مسكونة حتى عصر الهكسوس ، وعثروا فيها على كثير من أوراق البردى المهمة وعلى غيرها مما كان يستخدمه الناس فى حياتهم اليومية من أدوات .

وعلى مقربة من هرمه أقاموا عددا كبيرا من المصاطب لأهل بيته ، وعلى بعد غير قليل منها قامت جبانة كبيرة كانت مدفنا للكثيرين من رجال بلاطه (١) .

وفى مقبرة من مقابر الأميرات عثرت إحدث بعثات الحفر الأجنبية فى عام ١٩٢٠ على مجموعة كاملة من الحلى داخل صندوق مخبأ فى فجوة فى الجدار الصخرى غاب عن أعين اللصوص القدماء ، وأكثر هذه المجموعة يوجد الآن فى متحف المتروبوليتان فى نيويورك .

لم يزد حكم سنوسرت الثانى على تسعة أعوام ، بما فى ذلك الفترة التى اشترك فيها مع أبيه أمنمحات . وعندما ترك العرش لابنه سنوسرت الثالث فى عام ١٨٩٧ ق.م. استقبلت مصر ملكا كان مقدرا له أن يكون من أعظم من جلس على عرش الفراعنة فى جميع العصور .

طال حكم سنوسرت الثالث حتى زاد على ثمانية وثلاثين عاما (١٨٧٩ – ١٨٤١) وترك وراءه فى أكثر بلاد مصر آثارا تدل على نشاطه ، فبنى المعابد الكثيرة وأقام آثارا له فى أشهر المعابد التى شيدها من سبقه من الملوك ولكن أهم أعماله تركزت فى أمرين ، أحدهما قضاؤه انتام على نفوذ حكام الأقاليم ، والثانى أعماله الحربية سواء فى فلسطين أو فى جنوب الوادى ، وما قام به من حروب ضد القبائل التى أغارت عليه ، وتشييده الكثير من الحصون الحربية فى تلك المنطقة التى جعلت منه بطلا أسطوريا للأجيال القادمة . أما قضاؤه على نفوذ حكام الأقاليم فكان سياسة ناجحة أزالت من البلاد كل أثر لما كانوا يتمتعون به من نفوذ ، وكل أثر للإقطاع .

لقد نقم كثير من رؤساء تلك العائلات القوية على منتوحوتب الثانى عندما وحد البلاد وأخضعهم لسلطته ، وقد استغل أمنمحات الأول ما فى أنفسهم من حفيظة ، فأبقى لهم الكثير من نفوذهم بعد أن وضع الحدود بين تلك الأقاليم فظلوا سادة فى ديارهم طالما كانوا يدفعون الضرائب ويقدمون الولاء ، ويرسلون رجالهم ليحاربوا عندما يطلب اليهم الملك ذلك .

ولكن مع مضى الزمن أخذ نفوذ أولئك الحكام يزداد وثرواتهم تعظم ، فكان من الضرورى وضع حد لهذا الأمر ، ولم يكن هناك من هو أقدر من سنوسرت الثالث لتسديد هذه الضربة فجردهم من مزاياهم وخلع عنهم ألقابهم التقليدية التى كانوا يورثونها لأبنائهم ، فلم يصبح حكام الأقاليم منذ عهده إلا موظفين عاديين كغيرهم .

ولم يقل إهتمام سنوسرت الثالث بالفيوم ولكنه لم يشيد هرمه هناك بل شيده كبعض من سبقه من ملوك هذه العائلة فى منطقة دهشور ، وقد عثر فى عامى ١٨٩٨ – ١٨٩٩ على مجموعة عظيمة من حلى أميرات بيته اللاتى دفن على مقربة من هرمه ، وهى تزين الآن قاعة الحلى فى المتحف المصرى بالقاهرة .

وفي أواخر أيامه أشرك معه في الحكم إبنه أمنمحات الثالث (١٨٤١ – ١٧٩٢ ق.م) الذى طالت أيام جلوسه على العرش أكثر من جميع من سبقه أو جاء بعده من ملوك هذه الأسرة .

جنى أمنمحات الثالث ثمرة حروب أبيه وإصلاحاته فنعم بعهد من الرخاء والطمأنينة انصرف فيه إلى أعمال الإنشاء ، فشيد كثيرا من المبانى فى مختلف أنحاء البلاد . والتفت إلى الرى ، وحظى إقليم الفيوم أكثر من أى إقليم آخر بجهوده ، فأتم ما بدأه جده سنوسرت الثانى من أعمال لإستصلاح جزء كبير من أراضى تلك الواحة ، بعمل الجسور العظيمة لتحديد البحيرة الطبيعية التى فيه ، وشيد القناطر عند هوارة وعند مدخل الفيوم (روحنت – اللاهون) وشق الترع وبنى على شاطئها ، الذى أصبح على منسوب جديد ، كثيرا من المعابد التى أبقى الزمن على كثير من بقاياها وبخاصة فى الجنوب الغربى من الإقليم مثل معبد مدينة ماضى الذى بناه فى أواخر سنى حكمه عندما كان ابنه أمنمحات الرابع شريكا معه فى الملك ، كما بنى معبدا آخر فى مدينة شدت (مدينة الفيوم الحالية – كيمان فارس) وأقام هرمه عند بلدة هوارة ، وبنى إلى الشرق منه معبده الشهير الذى أسموه فيما بعد « اللابيرنت » ، والذى كتب عنه اليونان والرومان الشىء الكثير ، ولكن لم يبق من آثاره إلا بضعة أحجار متناثرة هناك . وقد عثر فى صيف عام ١٩٥٦ على مدفن ابنة له تسمى « نفروبتاح » ، وعثر فى داخل حجرة الدفن على ثلاث أوان كبيرة من الفضة وعليها إسمها وإسم أبيها أمنمحات الثالث ، ولم يعثر فى تلك الحجرة على شىء آخر ذى أهمية . وقد وجد تابوتها سليما لم يفتحه اللصوص ، ولكن لم يعثر على مومياتها سليمة فى داخله بما تحللت جثتها من مياه الرشح ولم يكن معها إلا القليل من الحلى ، ويظهر أنها دفنت على عجل فى ذلك الوقت المضطرب من تاريخ مصر .

وتلاه على العرش إبنه أمنمحات الرابع ، الذى لم تتوافر فيه مزايا أسلافه العظماء ، فلم نعرف عنه إلا القليل إذ ورد إسمه على بعض لوحات موظفيه ، ومنهم من ذهب إلى المحاجر فى النوبة وإلى محاجر وادى الهودى لاستحضار الجمشت ، كما ورد إسمه أيضا على جدران معبد مدينة ماضى بالفيوم .

وتذكر بردية تورين أنه حكم تسعة أعوام وثلاثة شهور وسبعة وعشرين يوما ، ولسنا نعرف تماما أين دفن وإن كان الرأى الأرجح أنه كان مدفونا فى أحد الهرمين اللذين ما زالت بقاياهما القليلة قائمة حتى الآن خلف قرية مزغونة إلى الجنوب من أهرام أجداده فى اللشت .

وتنتهى أيام تلك الأسرة المجيدة نهاية محزنة . فقد رأينا الضعف يدب فى أوصالها بعد أمنمحات الثالث ، وها هى تنتهى عندما تولت إبنة الملك أمنمحات الثالث عرش مصر ، ولم يطل حكمها أكثر من ثلاثة أعوام وأربعة أشهر وعشرين يوما كما جاء فى بردية تورين بين أعوام ١٧٨٢ و١٧٧٨ قبل الميلاد .

ومن المحتمل أن تلك الملكة واسمها « سوبك . نفرو » شيدت هرمها على مقربة من هرم أمنمحات الثالث فى هوارة ، فقد عثر على بعض آثار باسمها على مقربة من ذلك الهرم فى القرن الماضى .

فإذا ما تساءلنا عما حدث وما الذى قضى على حكم تلك الأسرة، وربما على الملكة أيضاً . فإننا نجد أنفسنا عاجزين عن الجواب المقنع لقلة ما لدينا من وثائق . فربما كان ضعف الأسرة ناشئاً عن إضطرابات داخلية ومنافسات بين أفراد العائلة الحاكمة ، فقد رأينا مظاهر هذا الضعف منذ أيام أمنمحات الرابع ، ولكنا سنرى عند الحديث على عصر الفترة الثانية وجود عوامل أخرى خارجية بعضها بسبب ثورات قامت فى الجنوب ، والبعض الآخر فى آسيا . ولم يكن على عرش مصر ملك مثل أمنمحات أو سنوسرت فيوقف ذلك التيار الجارف فهوى الصرح ، ولم تنته عائلة أمنمحات فحسب بل دخلت مصر فى فترة مظلمة من تاريخها جاء فى أعقابها غزو أجنبى . وكانت فترة طويلة لم تقل فى مجموعها عن ٢٠٨ سنوات وهى عصر الفترة الثانية التى بدأت إثر موت الملكة سوبك نفرو عام ١٧٧٨ ولم تنته إلا فى عام ١٥٧٠ عندما أتمت مصر تطهير أرضها من ذلك الغزو الأجنبى وبدأت عهداً جديداً فى تاريخها وأسست الأسرة الثامنة عشرة .

ولكن قبل أن نتحدث عن عصر الفترة الثانية يجب أن نقف قليلا لنلقى نظرة على أهم مظاهر الحياة الاجتماعية فى الأسرة الثانية عشرة .

نظرة عامة فى الحياة الاجتماعية :

عرفنا الكثير عن حياة المصريين فى أيام الدولة القديمة مما تركوه مرسوما على جدران مقابرهم ، وبالرغم من أن اغالبية الكبرى من مقابر الدولة القديمة كانت مبنية بالأحجار ، أو من الطوب اللبن فى بعض أجزائها ، فإن بعضها كان من أيام الأسرة الرابعة يقطع فى صخر الجبل ويزينون جدرانها الصخرية بما يشاؤونه من نقوش إذا كان نوع الصخر جيداً ، ولكن إذا كان نوع الصخر رديئاً يغطون الجدران بطبقة من الملاط الجيد ، ويرسمون ويلونون فوق الملاط .

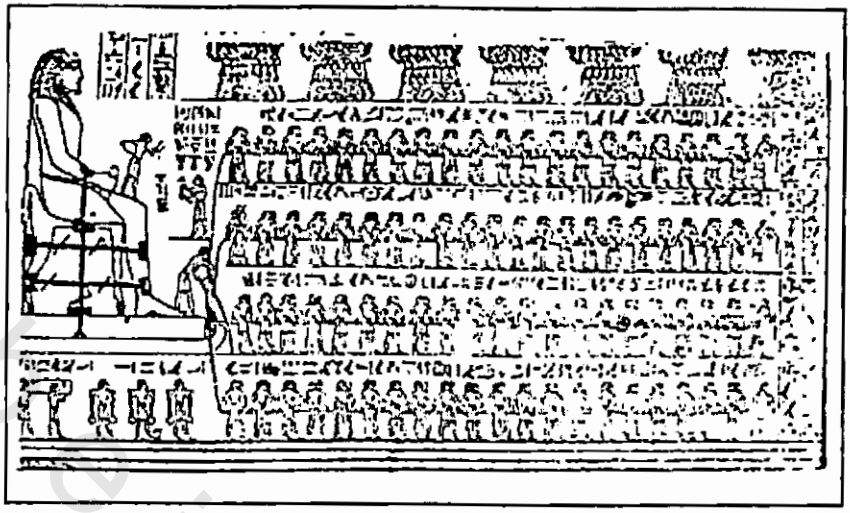

نقل تمثال الحاكم «تحوتى حتب» رسم فى مقبرته بالبرشا فى محافظة أسيوط .

ومقابر الدولة الوسطى وفيرة العدد ، مختلفة الأنواع ، ولكن أهمها فى دراستنا لما طرأ على الحياة الإجتماعية من تطور أو تغيير ، هى مقابر أمراء الأقاليم وعائلاتهم وكبار موظفيهم ، تلك المقابر التى خلفوها وراءهم فى بلادهم وقطعوها فى صخر الجبل فى أماكن مرتفعة تشرف على المناطق المزروعة .

كان أمراء الأقاليم يعيشون فى أقاليمهم منذ الأسرة السادسة كما ذكرنا ، واستمروا فى عصر الفترة الأولى ، وزاد نفوذهم بعد ذلك ، وكان كل واحد منهم يحيط نفسه ببلاط صغير ، وله جيش لحماية الأقليم من إعتداء أى إقليم مجاور ولنشر الأمن والطمأنينة بين السكان . ويكفى أن يزور الإنسان بعض مقابر هذا العصر فى بنى حسن أو فى البرشا أو فى شطب أو أسيوط أو فى الأقصر أو فى أسوان ويرى عظمتها ، ومدى عنايتهم بنقوشها ، ليدرك أن كل واحد من أصحابها كان ملكا صغيرا فى إقليمه . ولسنا ندهش لثرائهم فقد كانت الضرائب كلها تقدم إلى خزائنهم ، ثم يقدمون بأنفسهم بعد ذلك إلى الملك ما يكونون قد اتفقوا عليه . وإذا صدقنا ما ذكره هؤلاء الحكام فى مقابرهم أو فى اللوحات التى خلفوها وراءهم . فإنهم كانوا مهتمين بنشر الأمن فى بلادهم وعدم الظلم ، وكانوا يعتمدون على جنودهم فى حماية الآمنين من الناس من عبث العابثين .

وما من شك فى أن كل حاكم من أولئك الحكام كان يهتم بجنوده ولهذا أكثروا

من تدريبهم الجثمانى حتى تظل لهم مرونتهم وسرعة حركتهم فى القتال . صوروا على جدران المقابر مناظر تمريناتهم وأخصها المصارعة . فنرى مناظرها مفصلة فى مقابر كثيرة ، وبخاصة فى مقابر بنى حسن . ولكن المصارعة لم تكن الرياضة الوحيدة التى مارسها الجند ، فقد كان هناك أيضاً حمل الأثقال ، يملؤون غرارة من الرمل أو التراب ويرفعها كل من المتبارين بيد واحدة إلى ما فوق رأسه ، فإذا تمكن كل منهما من ذلك زادوا من كمية الرمل أو التراب حتى يعجز أحدهما . ومن بين المناظر التى على تلك الجدران مناظر المبارزة بالعصى ، كما نرى أيضاً لجنود وهم يحملون بعض أدوات القتال وأهمها الأقواس ولحراب وفؤوس القتال ومن بينها ذلك الدرع الكبير الشبيه بالخيمة يحمله ثلاثة من الرجال ويتقدمون فى حمايته للهجوم على الأعداد أو لمهاجمة سور إحدى القلاع ليحدثوا ثغرة فيه ، وذلك بتحريك قضيب ذى نهاية معدنية يحركونه وهم داخل الدرع من ثقب فيحطمون به الأبواب أو يفتحون به ثغرة فى الأسوار ، وهم فى مأمن من سهام المدافعين عن ذلك الحصن ، أى أن تلك الدروع الكبيرة كانت تقوم فى ذلك العهد بما تقوم به العربات المصفحة فى عصرنا الحاضر .

ونرى أيضاً على تلك الجدران المناظر المألوفة فى الحياة اليومية مثل الحفلات الموسيقية المصحوبة برقص الراقصات ، ومناظر الصناع والعمال المختلفين ، والمناظر الدينية التى نرى فيها الكهنة يقومون ببعض الطقوس ، ونرى الأتباع يحملون الأطعمة والأزهار ليقدموها إلى صاحب القبر .

ومن أهم الموضوعات التى أقبلوا على رسمها فى مقابر ذلك العهد مناظر الصيد سواء أكان ذلك فى الصحراء ، حيث نرى الحيوانات الصحراوية المختلفة أو صيد الطيور فى الحقول ، أو على مقربة من المستنقعات ، أو صيد السمك بالطرق المختلفة .

وفى مقابر الدولة القديمة نرى سفنا أكثر مما كان يملكه صاحب القبر للتنقل به على صفحة النيل ، أو لنقل المحاصيل المختلفة ، والقليل منها تلك السفن التى نعرف أن أصحابها اشتركوا بها فى الأعياد التى كانت تقام فى بعض العواصم الدينية القديمة مثل بوتو أو نخن . ولكن فى مقابر عصر الفترة الأولى والدولة الوسطى نراهم يكثرون من رسم سفن ويكتبون إلى جوارها إنها ذاهبة أو آتية من أبيدوس ، إذ أصبحت العادة المتبعة هى نقل مومياء الميت إلى أبيدوس لتزور المعبد أو لتدفن هناك بعض الوقت ، فى ذلك المكان المقدس للإله أوزيريس .

وإذا فحصنا تلك المناظر نرى تطوراً واضحا فى أشياء كثيرة ، نرى تطوراً فى

أشكال الملابس ، وفى الحلى ، وفى الأوانى وفى الأدوات المختلفة ، إذ نرى فيها اختلافاً عما كانت عليه فى الدولة القديمة ، كما نرى تطوراً فى الفن نفسه وفى المواضيع المحببة إلى الفنانين .

وعلى ذكر الفن وتطوره يحسن بنا ألا ننسى أن الرسم بالألوان فوق الملاط قد تقدم ولكن عمل التماثيل ، وبخاصة تماثيل الأشخاص ، قد تأخر كثيراً عن مستوى الأسرتين الرابعة والخامسة اللهم إلا فى بعض حالات قليلة فى تماثيل بعض ملوك الأسرة الثانية عشرة مثل الملك سنوسرت الثالث . لقد أقبل الأفراد من جميع الطبقات على طلب عمل التماثيل فكان الفنانون يصنعونها من جميع الأحجام وفى جميع الأوضاع ، دون التقيد بصورة صاحبها . وعندما كان يختار أحد من الناس تمثالا كان يضيفون اسمه وألقابه . ولم يقتصر ذلك على التماثيل بل كان متبعاً أيضاً فى التوابيت الخشبية ، وبعض اللوحات الجنازية ، ولم يكن الفنانون يعملون تماثيل أو توابيت أو لوحات خاصة وعلى نمط معين إلا للأغنياء وكبار الموظفين ومن كانوا أعلى من هؤلاء فى مرتبتهم .

وتمتاز الأسرة الثانية عشرة بما أنتجه صانعوا الحلى وبخاصة لأميرات البيت المالك إذ جمعت تلك الحلى بين الدقة المتناهية فى الصناعة والذوق الفنى الرفيع ، ونرى تلك المجموعات فى المتاحف المختلفة وبخاصة فى متحفى القاهرة والمتروبوليتان بنيويورك فلا نملك إلا الإعجاب بها وبصناعتها ، وقد فحص الكثيرون من الخبراء تلك الحلى وهم يرددون جميعا رأياً واحداً وهو أن الصائغ الحديث ، مع ما تيسر له من أدوات ووسائل لا يمكن أن يتفوق على الصائغ المصرى القديم الذى عاش فى أيام الدولة الوسطى أى قبل قرابة أربعة آلاف سنة .

تكفينا الآن هـذه الإشـارات العابـرة إلى بعض مظاهر الحياة الاجتماعية ولننتقل إلى نقطة مهمة فى تاريخ هذه الأسرة ، وهى علاقتها بغيرها من البلاد .

الصلة بين مصر وغيرها من البلاد فى الدولة الوسطى :

إذا رجعنا إلى الوثائق المعاصرة من أيام هذه الدولة ، وبخاصة فى الأسرة الثانية عشرة ، نجد أن مصر زادت كثيراً من صلتها بما حولها من بلاد . فقد إهتم ملوكها بتأمين حدودها الغربية والشرقية ، وأقاموا التحصينات ، وبدأوا أيضاً سياسة جديدة نحو واحات الصحراء الغربية منذ أيام أمنمحات الأول فاهتموا بها وكانوا يرسلون الدوريات البوليسية للتفتيش على الطرق لتأمينها . كما نعرف أيضاً أن الواحات ، وبخاصة الواحات الخارجة والداخلة ، وكانت شديدة الصلة بطيبة وأبيدوس،

قد أخذت تزدهر فى ذلك العهد .

ولكن الأمر لم يقف عند حدود مصر . فقد زادت الصلة التجارية والثقافية بين مصر والشاطىء الفينيقى ، وكان ملوك مدينة جبيل وثيقى الصلة بملوك وادى النيل الذين كانوا يرسلون إليهم الهدايا الثمينة ويتلقون منهم بعض الأشياء الثمينة من حاصلات ومصنوعات تلك البلاد . كانت التجارة بين مصر وشرقى البحر الأبيض تأخذ سيرها فى واحد من طريقين أحدهما طريق البر والثانى طريق البحر . ولم تكن تلك الصلة قاصرة على الشاطىء الفينيقى بل كانت تشمل جزر البحر الأبيض المتوسط وبخاصة جزيرة قبرص القريبة من الشاطىء السورى وجزيرة كريت ذات الحضارة المزدهرة فى ذلك العهد ، والتى كان لفنها بعض الأثر فى زخرفة الحلى المصنوعة فى مصر .

كانت هناك صلة وثيقة بين مصر وفلسطين والشاطىء الفينيقى وجزء كبير من سورية ، فهل كانت لمصر سياسة إستعمارية فى ذلك الوقت فى تلك البلاد ؟ وهل يدل وجود آثار مصرية فى بعض بلادها سواء على مقربة من الشاطىء أو فى منطقة البقاع على نفوذ سياسى لمصر ؟ . الجواب على ذلك هو أن مصر لم تكن معنية إلا بالتجارة وإن كان هناك ذكر عارض لحملة حربية أو لحملتين على تلك البلاد ، فإنها كانت دون شك لتأديب بعض القبائل التى استهانت بمصر وكرامتها وهاجمت قوافل تجارتها التى كانت إذ ذاك احتكاراً للملوك .

كان رسل مصر يسيرون جيئة وذهابا على الطريق التجارى الرئيسى بين مصر والشاطىء السورى ، وبين الشاطىء وداخل سورية كما ذكرنا عند الحديث عن سنوهى ، وكانت تقيم فى أكثر من مدن سورية جاليات مصرية لأجل التجارة . وكان لبعض الآلهة المصرية معابد هناك ولكن لم تكن لمصر حاميات فى أى ماكن ، وإذا كان ملوك جبيل قد ارتبطوا برباط صداقة وولاء مع مصر ، أو كانوا متأثرين كثيراً بالثقافة المصرية فإن أولئك الملوك لم يكونوا من موالى مصر أو كانوا يحكمون باسمها، أو يقدمون لها جزية مفروضة عليهم .

كان ازدهار الأسرة الثانية عشرة بين أوائل القرن العشرين وأوائل القرن الثامن عشر قبل الميلاد (١٩٩٢ – ١٧٧٨ ق.م.) ، وكانت مصر إذ ذاك أعظم الأمم ثقافة وقوة فى بلاد الشرق القديم ؛ لأن بلاد الرافدين فى ذلك الوقت كانت تجتاز فترة ضعف فى تاريخها ، لم يخرجها منها إلا الملك حمورابى عام ١٧٢٨ ق.م. ولهذا لا يكون مستغرباً إذا وجدنا نفوذ مصر الثقافى يتغلغل فى بلاد فلسطين وسورية ، ولا يدهشنا أن نرى المصريين يستفيدون من هذه الظروف ويقوون صلاتهم التجارية بتلك

البلاد . وليس من المستغرب أيضاً أن يبدأ بعض سكان تلك البلاد فى التفكير فى المجيء إلى مصر يحملون خيرات بلادهم للإتجار بها (١) .

ولكن صلة مصر بالجنوب كانت ذات طابع آخر ، إذ تعتمد مصر فى حياتها على النيل ، وكانت منذ فجر تاريخها تهتم بالجنوب وتعنى بمعرفة طرقه وتهتم بالحصول على خيراته . وأخذ ملوك الدولة القديمة منذ أيام الأسرة الخامسة يرسلون الحملات للإتصال بأهله ، وقد رأينا عند حديثنا عن تاريخ الأسرة السادسة أن أهل النوبة لم يكونوا يرحبون دائما بتلك الحملات وكانوا يهاجمونها فى بعض الأحيان . ولكن ما جاءت أيام الأسرة الثانية عشرة حتى كانت الأمور قد تغيرت فى تلك البلاد وذلك بسبب تقدم الجنس الزنجى نحو الشمال واختلاطه بثقافة حامية الأصل ، وسيطرته على السكان المحليين فأصبح مع مرور الأيام خطراً على مصر نفسها .

ولهذا نجد ملوك الأسرة الحادية عشرة يهتمون بالجنوب ، ونجد الملك أمنمحات الأول منذ توليه العرش يهتم بهذا الأمر ، ويتم ملوك الأسرة إخضاع المنطقة بين الشلال الأول والشلال الثانى إخضاعاً تاما للنفوذ المصرى ويبنون هناك الحصون وقد بلغ عددها سبعة عشر حصنا ، ويضعون فيها الحاميات ويحرمون على أحد من السكان الزنوج أن يتعدى الشلال الثانى فى طريقه نحو الشمال سواء بطريق النيل أو بطريق البر إلا بقصد التجارة وفى جماعات قليلة .

ولم تقف هذه الأسرة عند ذلك بل دفعت بحدود مصر إلى جنوبى الشلال الثالث وهناك ، عند مكان يقال له « كرمة » ، أقاموا حصنا ومخزنا كبيراً لإيداع ما يحمله التجار من بضائع . وكان يقيم هناك حاكم مصرى ، وكانت هناك أيضاً مدينة مصرية صغيرة وفيها صناع مصريون . ولسنا نعرف على وجه اليقين كم من الحكام تولوا تلك الوظيفة ، ولكن واحداً منهم واسمه « زفاى حعبى » (٢) مات هناك فدفنوه حسب تقاليد البلاد ، لا حسب التقاليد المصرية ، وضحوا بأكثر من مائتى شخص

(وربما كانوا نحو ٢٧٠) من خدمة وأتباعه ودفنوهم فى الممر المؤدى إلى قبره ،[١] ثم أقاموا كوما كبيراً فوق القبر ووضعوا فوقه تمثالا له داخل هيكل مشيد من الطوب .

لم تكن عادة دفن الأتباع قاصرة على الزعماء أو الملوك فى السودان فى ذاك الوقت بل كانت عادة عامة فى كثير من حضارات العالم القديم ، وقد وجد « ريزنر » الذى حفر منطقة كرمة قبل الحرب العالمية الأولى كثيراً من القبور التى دفن فيها الخدم مع سادتهم ومن بينهم قبر لطفلة صغيرة إحتضنتها مربيتها داخل القبر وقد رقدت خادمة أخرى على مقربة منهما ، وقد دفنت كل من المربية والخادمة وهن أحياء وكانت العادة المتبعة هى أن يعطوا أولئك الخدم أو الأتباع شراباً مخدراً ويضربوهم ضربة قاتلة على رؤوسهم إذا رفضوا تناوله . والفكرة فى دفنهم مع سادتهم هى أن يقوموا على خدمتهم فى الحياة الأخرى كما كانوا يخدمونهم فى هذه الدنيا .

لم يقتصر الاهتمام بالجنوب على ملك دون آخر ، فتراهم جميعاً وقد أظهروا الكثير من العناية بالنوبة وبمياه النيل وتكن واحداً من بينهم وهو « سنوسرت الثالث » اهتم اهتماما خاصا بالحد الجنوبى لمصر ونزل بنفسه إلى الجنوب على رأس الجيش عدة مرات واعتنى عناية كبير بتجديد للحصون وتقوية الحاميات ، وأقام عدة لوحات للحدود جنوبى الشلال الثانى ، وحرم على جميع الزنوج الجنوبيين إجتياز ذلك الحد وكتب فى تلك اللوحات أنه برىء من ابن يأتى بعده ولا يحافظ على تلك الحدود ، ويحارب من أجلها . وبعد موت هذا الملك بخمسمائة عام تقريبا نرى ملكا عظيما آخر يقدر أعماله وجهوده فى المحافظة على حدود مصر الجنوبية ، نرى الملك العظيم «تحوتمس الثالث» يرفع « سنوسرت الثالث » إلى مصاف الآلهة ويجعل منه إلها حاميا للنوبة ، ويقيم المعابد لعبادته ويقف أمامه يقدم له القرابين كإله من الآلهة .

العناية بالرى والتوسع فى الزراعة :

لقد أشرت أكثر من مرة فى هذا الفصل إلى اهتمام ملوك هذه الأسرة بإقليم الفيوم ، والواقع إن إهتمامهم بهذا الإقليم لم يكن إلا أحد مظاهر عناية تلك الأسرة بمسألة من أهم المسائل الحيوية لمصر وهى الانتفاع بمياه النيل ومحاولة زيادة الأراضى المزروعة .

وبالرغم من أننا لا نعرف كم كان عدد سكان مصر فى الدولة القديمة . وكم

كان عددهم فى الدولة الوسطى ، فإن ظواهر الأمور تدل على إزدياد عدد السكان خلال ذلك العهد المزدهر الذى سادته الطمأنينة خلال حكم الأسرة الثانية عشرة . وسواء أكان اهتمام ملوك الأسرة بموضوع مياه النيل راجعاً إلى ضرورة إقتصادية أو كان إصلاحا عاديا للتقديم بالبلاد ، فإننا نعرف أنهم كانوا يسجلون إرتفاع النيل عند الشلال الثانى ، عند حصن سمنة ، وذلك ليطمئنوا على حالة الفيضان ويتخذوا من الإحتياطات ما يكفى لمجابهة الحالة المنتظرة يستوى فى ذلك إذا كان الفيضان عاليا أو أقل من المعتاد .

ولم يكن إهتمامهم بإقليم الفيوم راجعا فقط إلى استغلال البحيرة لتكون خزانا للمياه فى أيام الفيضان ثم الاستفادة من تلك المياه فى أوقات التحاريق ، بل استفاد الإقليم كله من عمل الجسور اللازمة ؛ لذلك الخزان وتم إستصلاح مساحة تقرب من سبعة وعشرين ألف فدان ، كما يرجح أيضاً أن تكن الأراضى المزروعة فى الإقليم قد تحسنت بسبب تلك المشروعات ، وبدأت تنشأ مدن جديدة حول البحيرة نفسها على منسوب + عشرين مترا فوق مستوى مياه البحيرة زيادة على المدن القديمة التى كانت قائمة قبل ذلك (١) .

وليس لدينا أدلة ثابتة على قيام ملوك تلك الأسرة بأى مشروعات أخرى لاستصلاح الأراضى فى غير إقليم الفيوم ولكن إهتمامهم بمقاييس النيل ونجاحهم الكبير فى استصلاح الأراضى فى الفيوم يجعلنا نرجح أن جهودهم فى زيادة الثروة الزراعية لم تقف عند حد الفيوم وربما كان لهم نشاط آخر فى استصلاح أراضى بعض مناطق الدلتا ولكن لم تصلنا عن ذلك أى وثائق معاصرة حتى الآن ، وربما كان المستقبل كفيلا بذلك .

تلك نظرة عامة على الأسرة الثانية عشرة وعلى الدولة الوسطى بصفة عامة ، رأينا فيها إزدهار الأدب والفن ، ورأينا أيضاً كيف تغلبت مصر على ضعفها فى عصر الفترة الأولى وكيف استعادت ثقتها بنفسها ، واستأنفت السير فى الطريق الذى رسمته لنفسها منذ أن كونت أصول حضارتها . ولم تقف مصر خلال أيام الدولة الوسطى

جامدة تترسم خطى الدولة القديمة بل نرى تطورها فى مختلف الميادين ، ونرى تطورها فى السياسة الخارجية بل وفى الذهنية الدينية أيضاً .

لقد عاد للملك ما كان له من نفوذ وسلطان ، وعاد الموظفون إلى تملقه والتمسح فى أعتابه ، وأختفت من لوحات الأفراد ، أو كادت ، تلك النغمة الحلوة وهى الإعلاء من قيمة الفرد واعتماده على ما يقدمه من عمل صالح فيضمن النجاح فى الدنيا والآخرة ، وحلت محلها النغمة التقليدية القديمة وهى أن الخير كل الخير فى عطف الملك ورضاه . وما من شك فى أن أكثر ملوك الدولة الوسطى لم يكونوا عتاة أو متجبرين فى الأرض بل نعرف عن أكثرهم أنهم كانوا فخورين بعدلهم بين الناس وسهرهم على رعايتهم ، ولهذا سرعان ما اطمأن الناس إلى حكامهم وتركوا أمر سعادتهم بين أيديهم ورجعوا إلى تقاليدهم القديمة فى تمجيدهم . ولكن ذلك كله لم يغن شيئاً عندما أخذت تتجمع فى الأفق سحب قاتمة ، وعندما بدأت رياح الأحداث فى مصر وفى خارج مصر تدفع بتلك السحب فوق البلاد ، وإذا بمصر تتعرض مرة أخرى لفترة ضعف ، هى ما نسميه عصر الفترة الثانية .